الفصل الثانى

المؤثرات الأجنبية

هل كنا إزاء (تفاعل) حضارى ؟

يقول علماء النبات أن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره أنتج ثمرا أحلى من النباتين ، فالتفاح إذا طعم بالكمثرى جاء فاكهة جديدة أحلى مذاقا ، وأعطر شذى ، وكان بالتالى فى السوق أكثر طلبا وأغلى ثمنا ، ففيه طعم الفاكهتين ورائحتهما .[١]

ويقول بعض الباحثين فى الذكاء ، إن الأسرة أو القبيلة التى يتزوج أفرادها بعضهم البعض الآخر يكون مصير أجيالها الضعف والغباء جيلا بعد جيل ، وعلى العكس ، إذا دخل الأسرة دائما دم جديد من أسرة أو أسر جديدة ، جاء النسل أكثر قوة وأذكى عقلا ، وبالتالى أصلح للبقاء وأقوى على النضال فى الحياة [٢].

ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة إن الشعب أو المجتمع أو الدولة أو الحضارة التى تعيش وحدها وتنطوى على نفسها ولا يصيبها تطعيم أو تلقيح من حضارة غيرها ، يكون مصيرها الضعف والانحلال ، ولا تقول الزوال ، فإنها تبقى موسومة فى سجل التاريخ بأنها حضارة ضعيفة ، وهكذا نجد أن الحضارات القديمة كانت دائما على اتصال ، فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة لها وفيها جماع ما فى سابقتها من خير تتخذه كأساس لتبنى فوقه أبحاثا ، وكشوفا ، وعلوما ، وآدابا ، وفنونا جديدة هى كلها ثمرات لمجهود بشرى جديد [٣] .

لكن عملية (التلاقى) و(التلاقح) ليست موحدة الصورة ، فلها أشكال عدة تختلف باختلاف اجتهادات الباحثين والصور التى لنا اقتراحها هنا تتحدد فى النماذج الأربع التالية :

١- نموذج الانفصال والرفض ، وهنا نجد حضارات ترفض العلاقات المتبادلة تحت تأثير مشاعر الاستعلاء ، ومثالنا هنا ما نجده فى الفكر الرومانى من عنصرية واضحة ، فشيشرون رغم اعتداله – يقول " نحن لا نتعلم من أحده " !

٢- نمـــوذج الـــتزاوج ، ومثالـــنا هنا الحضارة العربية الإسلامية ، فالمجتمع العربى ابـــتداء من العصر الأموى أقبل على فلاسفة الفكر اليونانى وعلى معالم الخبرة الفارسية ينهل منهما ويستقى من جزيئاتها مما يسمح له ببناء إطاره المتكامل للثقافة المتحضرة .

٣- نموذج التوحد وهذا النموذج يستقبل لا ليخصب وإنما ليقلد . انه يقبل على نموذج آخـــر وهو غير قادر على البناء والتشييد يخفض ذلك النموذج ويرى فيه حلا لمشاكله ، وهذا ممـــا يلحظ فى العلاقة بين النموذج الكاثوليكى والتراث الرومانى وبصفة خاصة فى كل ما له صلة بالشطر النظامى والقانونى للحضارة [٤].

٤- نموذج الهيمنة والسيطرة ، وهنا نجد أصحاب هذا النموذج لا يهدفون إلى التفاعل البـــناء دائمـــا إلى التخطيط بعيد المدى للسيطرة والهيمنة على الآخر لا لمجرد الاحتواء وإنما لاستغلالهم وجعلهم دائما فى منزلة التابعين الأذلة ، أو هو - فيما نعتقد - يتمثل فى الصورة الحديثة والمعاصرة لعلاقة الحضارة الغربية بالعرب والمسلمين !

ونحـــن فى هذا السبيل نفرق بين الثقافة الذاتية لأمة ما ، وبين العلم الذى لا وطن له والـــذى يشيع بين الناس دون عائق ! نعم هناك معارف تتصل بالكون والحياة يتناولها الناس حيـــث كانـــت ، بل لعلهم يدفعون المال والجهد لتحصيلها ..وآثار هذه المعرفة كالجسر الذى يبـــنى فـــى أوربا على شاطئ نهر لا يختلف كثيرا عن زميله الذى يبنى فى الصين ، وقواعد الهندســـة الـــتى تحكمها واحدة .. والجراحة التى تجرى للجسم الإنسانى فى أمريكا هى التى تجـــرى له فـــى أى مستشـــفى آخر متقدم ، والتعليمات الطبية المقررة لا تختلف هنا وهناك والـــناس يتســـابقون إلـــى إحراز الكثير من هذه العلوم ، بل لعل الروس مثلا يتجسسون على خصـــومهم فى الغرب - وهؤلاء يفعلون العكس أيضاً - ليروا : هل سبقوا إلى تقدم ذرى أو تفـــوق فـــنى فى أى مجال لينقلوه عنهم ! لكن هل ينقلون عن خصومهم الفكر الاقتصادى أو التنظيم الاجتماعى أو فلسفة القيمة والعمل ؟ بالطبع كلا [٥].

إن الـــثقافة الذاتـــية للأمـــة شـــئ آخر غير العلم العام ! هذه الثقافة هى التى تصنع " شخصـــية " الأمـــة وتبرز معالمها وتحدد خصائصها وتقرر تقاليدها وقوانينها وتستحسن لها أشـــياء وتستهجن أخرى ، بل هى التى تكون مزاج الأمة العام وأدبها وغناءها وما يطربها أو يشجيها ، ثم تخط لها مجراها الخاص فى الحياة الإنسانية .. ولا نزعم أن كل ثقافة ذاتية لأمة

تستند إلى أساس صحيح ، ولكنا نؤكد أن كل أمة ترى فى هذه الثقافة الخاصة كيانها الأدبى وملامحها المميزة وتعتبرها ذاتها ، ثم تدافع عن ذاتها بما تملك .

ولعل أول (موجة غربية) حضارية شهدها العالم العربى ، قد أتته من بلاد اليونان ، فلقد ظهرت فيها فى العصور القديمة مذاهب فلسفية وتربوية شامخة ونظريات علمية هامة ، تمكن بها اليونانيون من أن ينقلوا الإنسان من عهد الأسطورة والخرافة إلى عهد التفكير المنطقى المنظم ، وكان من الطبيعى أن تمتد آثار هذه الحركة الفكرية الهائلة إلى الشعوب المجاورة . وبالفعل استجابت الشعوب العربية للمؤثرات اليونانية حالما سنحت الفرصة لها . وكانت حركة الترجمة الهائلة التى نقلت بها المؤلفات الفلسفية اليونانية إلى السريانية والعربية دليلا على مدى التقارب الحضارى بين هاتين المنطقتين . والواقع أن هذه الحركة كانت ، بالنسبة إلى هذا العصر ، تمثل ظاهرة فريدة ليس لها فى العالم ، نظير ولو سألنا أنفسنا : أى شعوب الأرض تمكنت من استيعاب تراث اليونانيين والإفادة منه بعمق ووعى فى هذه الفترة البعيدة من العصور الوسطى ، لكان الجواب : الشعوب العربية وحدها [٦].

إعصار غير حضارى .. تتولد عنه حضارة

وهبت أعاصير الحرب على العالم الاسلامى منتهى القرن الحادى عشر ، وظلت تعنف به عنفا يكاد يكون متصلا حتى مطلع القرن الخامس عشر ، وقد بدأت هذه الحرب بهبوط الصليبيين الشام سنة ١٠٩٧ وبلغت ذروتها بانقضاض المغول على آسيا الصغرى فى صدر القرن الثالث عشر ، ثم مالت إلى الهدوء فى القرن الذى يليه لتندلع من جديد أول القرن الخامس عشر إذ عاود المغول غاراتهم الرهيبة على الشام وظلوا يهددونها حتى ظهور الحكم العثمانى ، الذى اعتبره البعض هو نفس الخطر الذى استطاع أن يهدد القارة الأوربية تهديدا متواليا حتى نهاية القرن السابع عشر [٧].

ولم تكن هذه الحرب من الحروب العادية التى تواترت على الشرق والغرب ، بين سقوط الدول القديمة وظهور الدول الحديثة ، بين مدينة ومدينة أو أمير وأمير أو ما ندعوه بالسلطة الزمنية والسلطة الروحية . كانت حربا ضروسا من الحروب التى يضرمها اصطراع العناصر الاجتماعية من حين إلى حين فتنقض نسج التاريخ وتقيم من الدماء حضارات جديدة ، كهجرة الأربين إلى الغرب فى فجر التاريخ ، وغزوات القبائل الجرمانية لجنوب

أوربـــا فـــى القـــرن الخـــامس والفتوح العربية فى القرن السابع ، فكان الصليبيون هم أوربا الخارجة من ليل الغزوات الجرمانية إلى فجر النهضة بعد أن امتزج بها الغزاة بالمغزوين فى مجتمع جديد واحد .

جاء فى تاريخ البابوات تأليف المسيو فرناند هايوارد Fernand Hayward ، وهو مؤرخ كاثوليكى المشرب ، أن البابا سيلفستر الذى عاش فى أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول مـــن نادى المسيحيين فى أوربا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم تصادف هذه الدعوة فى ذلك الوقت الحماسة اللازمة لها لأن أوربا لم تكن مستعدة لحرب كهذه.

وفـــى سنة ١٠٧٤ استنجد ميخائيل الثانى قيصر بيزانطية بالبابا غريغوريوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية ، ففى ذلك الوقت فكر البابا غريغوريوس فى إصلاء الإسلام حربا صليبية يهاجم بها الترك فى الشـــرق والعـــرب فى الغرب ، لأن العرب كانوا فى صقلية وأطراف إيطاليا. ويقول المؤرخ المذكـــور أن غـــريغوريوس السابع هو أول بابا فكر فى شن حرب صليبية على المسلمين ، ولكن لم تدخل هذه الفكرة فى حيز الإجراء إلا فى زمان البابا أربانوس الثانى [٨] .

قال أنه كان قد مضى قرابة مئة سنة وأوربا تحدث نفسها بالزحف صفا واحدا لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة ، إلا أنه لما توالت من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بـــأن ينصر مسيحيى الشرق على المسلمين ، توجه البابا أربانوس إلى فرنسا وطاف فى كثير مـــن مدنهـــا وعقد مجمعا فى كليرمون Clermont فى سنة ١٠٩٥ فى ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجتمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومائتان وخمسون مطرانا وأربعمائة قسيسا ممن يقال لهـــم أنصاف مطارنة ، وبعد أن تذاكروا فى مسائل كنسية خرج البابا إلى مساحة فسيحة تسع الجمهـــور وخطب الشعب قائلا : إن شعبا ملعونا قد اجتاح بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وعذب المسيحيين وهتك الأعراض ، فمن ينتقم لهذه الإهانات سواكم أنتم معشر الفرنسيس الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب فى الشجاعة فتذكروا مآثر آبائكم !

فعـــندما ألقـــى البابا أربانوس هذا الخطاب قابله الشعب الفرنسى بحماسة زائدة وعلا الصـــراخ : هكذا يريد الله ! ووضعوا علامات الصليب على أثوابهم ، وطاف بطرس الناسك

فـــى الـــبلدان يستنفر الأهالى للزحف وقتال المسلمين فى الشرق ، ولسنا الآن فى مقام تأريخ الحروب الصليبية وإنما نحن فى ذكر كيفية تولدها [٩].

وإذا كانـــت النغمة التى سادت هى النغمة الدينية ، وإذا كانت الأعلام التى رفعت هى أعـــلام الديـــن ، فلقد أثبتت دراسات عديدة ليس هنا مجال حتى للإشارة إليها ، أن الأوضاع الطبقية والتناقضات السياسية ، والمصالح الاقتصادية هى المحرك الحقيقى .

وقد عادت فلول الصليبيين من الشرق يزاد جديد كان غذاء لنهضة سرعان ما أسفرت عـــن انطلاقة عقل أخذ يضرب فى أفاق الحياة بسلطان العلم والفكر حتى استوت على درجة من التقدم غدا الشرق حيالها قزما ضئيلا [١٠].

وعـــادوا وهـــم يحملون من توقير المسلمين والحضارة العربية ما حمل مؤرخا مثل " هيرنشو " على أن يقول : "خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا (الكفـــار) الذيـــن كـــانوا يـــنكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وبقـــى هـــذا التوفـــير فى نفوس الأوربيين ، وبقيت معه ملامح الحروب الصليبية وانتصارات العثمانيين فى أوربا تعلى من بأس العالم الإسلامى ، ثم بدأوا يدركون أن العملاق قـــد انقلب قزما مما كانوا يسمعون من أقاصيص الرحالة من تدهور العالم الإسلامى وضعف شعوبه فانبعث فيهم الطمع القديم فى امتلاكه والقضاء عليه [١١] .

وإذا كانـــت حـــروب الصليبيين ترجع ، فيما كانت ترجع إليه ، لما بدا على المجتمع الأوربـــى فى نهاية عصر الوسط من انتعاش ، فقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك ، وكان من بدايـــة ظهور بحر الشمال وسيطرة أوربا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكتين ، هذا الاكتشاف الذى يعده أدم سميث بحق أكبر حدث فى تاريخ الإنسانية إلـــى أيامـــه على الإطلاق ، ثم ما أعقب ذلك من نمو اقتصادى لا سابق له ، إذ كانت أوربا تتصل بأسواق الشرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها بغتة على عالم ثان وتنتقل بالتالى ، من الإنتاج المحلى البسيط لأسواقها المحدودة ، إلى الإنتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب أسيا وأفريقيا أيضا ، وتزاول ما يستتبع هذا الإنتاج من اتجار ونقل ، ومن ثم كان ازدهار التجارة والصـــناعة فـــيها ازدهارا رائعا ، وكانت عودة الحياة إلى مدنها بعد أن هجرتها إلى الريف

عشـية العصـر الإقطـاعى ، وكـان ظهـور المنشـآت الصناعية والتجارية والمصرفية الحديثة [١٢] .

وكـان المجـتمع القائم على هذا النمو الاقتصادى يأخذ من ناحيته أثناء ذلك بأسباب الـرقى الذى نشهده فى الغرب إلى اليوم ، فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعـالم الجديـد وأسيا الوسطى ، أى المناطق التى جعل أبناء أوربا ينزحون إليها ويتجرون معهـا فيـثرون ويـتكاثرون ويحيون حياة رخية جديدة ، وتمايزت وظائفه فافترقت الشئون الزمنـية عـن الشـئون الدينية ، وتنوع الاقتصاد وظهرت العلوم المختلفة ، وبرزت أجهزته فكانت الدولة الحديثة والكنيسة الحديثة والجامعات والمصارف .

وقـد لازم هـذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادثا فى عالم الفكر أيضا من تحول عمـيق شامل فعاد المفكرون يدرسون آثار الماضى الإغريقى – الرومانى ، حين كان الناس يعيشـون ، ويبنون من حيث انتهى أسلافهم ، ويتعمقون مشاكل الحياة المادية ، بعد أن طال تعمقهـم للحـياة الأخرة ، ومن ثم كان الاتجاه الإنسانى Humanism ، والنهضة ومذهب العقلييـن والمذاهـب الفلسفية الحديثة ، وكان الاتجاه إلى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التى ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر[١٣].

مواجهة حضارية على أسنة الرماح :

ولقـد روج المؤرخون الغربيون ومن جاراهم من مؤرخى العرب الذين تتلمذوا عليهم فكرة خطيرة جدا تتلخص بأن العالم العربى قبل الوجود الغربى أو قبل التحدى الغربى ، كان فـى سـبات عمـيق ، حضـاريا ، تجمـد فـى القرون الوسطى ، وأن أوضاعه السياسية والاجتماعـية ، كانـت على درجة عالية من الاستقرار نتيجة لتسلط سياسى واجتماعى لفئات معيـنة ، وأنـه بدأ يتحرك ويتساءل ويحاول التغيير إثر صدمة القوة الغربية . ورغم أن هذه الفكـرة مـا زالت مسيطرة على معظم ما يكتب عن العالم العربى إلا أن البحوث والدراسات القلـيلة الجديـدة الـتى رفضـت الأسس الفكرية للعصور والتاريخ الاستشراقى ، تدل دلالة واضـحة علـى أن حـركات التغيير فى العالم العربى ، ومحاولات استئناف النشاط الفكرى السياسـى ، سبقت الوجود العسكرى فى المنطقة ، وكان للوجود الاستعمارى أثر سلبى على هذه الحركات الأصلية بحيث أنه شوهها وحول وجهتها وأهدافها وسلبها أصالتها [١٤] .

والجدير بالإشارة إليه ، أنه أصبح مسلما به ، أن الفترة التى رافقت الوجود الاستعمارى الغير مباشر ، أطلق عليها العرب فترة النهضة ، وأنه كان لهذه التسمية دلالة ، فما هى إلا التسليم الفكرى للتصور لما كان عليه العرب ، ولما حاولت الفئات المطالبة بالتغيير أن تصل إليه . وما علينا فى هذا المجال إلا أن نشير إلى تلك الحركات التى سبقت هذا الوجود الاستعمارى والتى كانت محاولات جادة لممارسة النشاط الحضارى العربى أو لإحداث تغييرات سياسية أو اجتماعية من شأنها أن تحقق قدراً كبيراً من العدل والحرية والتكامل الاجتماعى ، فحركة الوهابيين فى نجد ومنطقة الخليج ، والحركات المتكررة لإحداث تعديلات فى نظرية وبنيات المعرفة فى مصر عن طريق تعديل وتوسيع برامج الأزهر ، وحركة ظاهر العمر فى فلسطين ، والشهابيين فى لبنان ، ومحاولات لحم المجتمع فى الجزائر وتونس بوضع حد للفصل الكامل بين الحاكم الشركسى – التركى والمواطن العربى .. كلها جاءت قبل الوجود الاستعمارى والتحدى الغربى المباشر. والجدير بالأمر أن هذه الحركات جاءت نتيجة لإحساس داخلى بضرورة تعديلات فى لبنات المجتمع وبضرورة استمرار حيوية الحضارة العربية استنادا إلى أصولها الفكرية الإسلامية ، وعلينا أن نلاحظ أيضاً أن التدخل الاستعمارى جاء بعد أن أوشكت هذه الحركات على النجاح [١٥] !!

ومن أوضح الأمثلة لخطأ التاريخ المشار إليه ، هو الموقف من الحملة الفرنسية ، فالمدرسة الاستعمارية – والتى يقع كثير من العرب تحت تأثيرها أغلبهم بحسن نية – تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومى .. بداية تحررنا من الاستعمار التركى وخروجنا من القرون الوسطى ، ولكن الحملة الفرنسية فى واقع الأمر هى بداية غزو الإمبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن أن تصبح الإمبريالية داعية تحرر وأداة التقدم والانعتاق ؟

ولعلاج هذا التناقص تتقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم [١٦] !

الأول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهى ظاهرة منعزلة عن تاريخ الاستعمار الفرنسى ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالمشرق الإسلامى ، فالحملة الفرنسية – بموجب هذا الزعم – ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية ، وليس بالاستعمار الفرنسى ، ومن ثم فجيش الاحتلال الفرنسى لم يكن جيشا استعماريا تقليديا .. بل كان جيشا ثوريا ، كان جيش تحرير ، إلا أن هذا الزعم تواجهه حقيقتان [١٧] : الأولى هى أن الجميع يتفقون اليوم على الطابع الاستعمارى للثورة البورجوازية ، وأن دورها داخل بلادها يختلف

عن دورها – وان يكن مكملا له – الاستعمارى خارج وطنها . الحقيقة الثانية هى أن الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسى الاستعمارى الفرنسى .

الثانى : هو تعميم الطابع التحريرى والتقدمى ليشمل الغزو الغربى كله .. فيصبح الغزو الأوربى للشرق عامل خير ، وعنصر تقدم محتوم .. حتى ولو لم يكن مرغوبا .. أما الآلام التى صاحبته فهى آلام التغيير التى لا سبيل إلى تفاديها ، إلا بمعاناتها ، ولا أمل فى التقدم دون هذه المعاناة [١٨] !!

الثالث : القول بأن الوطن العربى بصفة عامة ، كان مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذى حدث هو استبدال استعمار متقدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئا ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير [١٩] !

يبدو أنه مما يصعب إنكاره أن الفرنسيين عند ما جاءوا إلى مصر ، أيقظوا فى المصريين ذكريات قديمة لغارة الأوربيين الصليبية على العالم الإسلامى ، واعتقدوا أنها غارة جديدة لا تلبث أن تتحطم أمام صدمات المماليك القوية كما تحطمت غاراتهم من قبل أمام قطز وبيبرس وقلاوون ، وما لبثوا أن أدركوا أن عهد المماليك العظام قد مضى ، وأن المماليك الذين يحكمونهم ليسوا إلا ظلالا لبطولة أفلت وانقضى عهدها [٢٠] .

وإذا كانت منشورات نابليون قد تحدثت عن المساواة ، ورفضت احتكار الحكم والسلطة عند المماليك ، فلم يكن فى تفكير عرب مصر والشام وعقيدتهم ما يمنع المساواة بين الناس ، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ارتقاء المناصب العالية .

وهناك من يؤكد أن أخطر خطوة اتخذها نابليون فى مصر لإعادة بناء الدولة على الأسس الحديثة ، كانت قيامه بإنشاء " أول برلمان مصرى عرف يومئذ باسم (الديوان العام) ، وكان أول تجربة عرفتها مصر فى الحكم النيابى منذ عهد البطالسة ، ففى ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ دعا نابليون إلى إنشاء جمعية عامة مكونة من أعيان البلاد وذوى الشأن فيها وتكون لها صفة تمثيل المصريين على مستوى القطر كله بقصد استشارتها فى النظام النهائى للمجالس التى أسسها وفى وضع النظام الإدارى والمالى والقضائى فى الدولة [٢١] !

لكن الذى تؤكده وثائق التاريخ أيضا أنه قبل أن يأتى بونابرت إلى مصر بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٥ ، بلغت مقاومة الشعب المصرى الظلم الوالى العثمانى والمماليك

حـــدا وقـــف بالبلاد على حافة الثورة ، وأفضت هذه المقاومة إلى استخلاص زعماء البلاد " حجـــة " مكتوبة وقعها الوالى العثمانى وزعيما المماليك : مراد بك وإبراهيم بك اللذان اقتسما الســـلطة فى مصر ، وإذا أردنا أن نستغل لغة العصر الحديث فقد وجب أن نسمى هذه الحجة نواة أول دستور استخلصه عرب مصر من حكامها فى الأزمنة الحديثة [٢٢].

ومـــع ذلـــك فـــلا نســـتطيع أن نغض الطرف عن الانجازات العلمية والثقافية للحملة الفرنسية على مصر والشام وخصوصا فى مصر .

ولاشـــك أن الشعب المصرى كان يمثل لقائد الحملة أهم العناصر التى ينبغى عليه أن يقيم بينه وبينها جسرا إعلاميا. ولقد كانت وسيلة الإعلام الرئيسية التى استخدمها بونابرت فى مخاطـــبة المصريين ، والتى تبعه فيها خليفتاه من بعده ، هى المنشورات العربية المطبوعة. وكانـــت حيث شائعة قبل اختراع المطبعة ، المنادى فى الطرق ، والإذاعة عن طريق ممثلى المســـلطات أو رجـــال الديـــن من منابر المساجد وفى غيرها من أماكن العبادة ، وبخاصة فى أوقات الصلوات الجامعة [٢٣] .

والواقع أن الحملة لم تقض تاما على تلك الوسائل التقليدية القديمة ، وإنما استعانت بها كذلـــك وبخاصـــة فـــى القـــرى. ولقـــد سجل ذلك فى أكثر من موضع المؤرخ عبد الرحمن الجـــبرتى ، فكـــان كثـــيرا مـــا يقول " ونادوا بذلك فى الطرقات " أو " نبهوا أيضا بالمناداة بأن ... " . غير أن الجديد ، هو تلك (الأوراق المطبوعة) التى كان الفرنسيون كلما أرادوا إعـــلام المصـــريين بشئ أصدروا منها " نسخا كثيرة " و " أرسلوا منها إلى الأعيان ولصقوا منها نسخا فى مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد [٢٤] .

وأنشـــأ بونابـــرت مصـــر صـــحفيتين أحداهمـــا (كوريـــيه دى ليجبـــت) Courier de l' Egypte ، والثانـــية (لاديكـــار إجيســـين) La De`cade Egyptienne وصـــحيفة إلـــ (كوريه) لم تكن موجهة للمصرين ، لأنهم يجهلون الفرنسية ، وإنما هى موجهـــة إلى جنود الحملة وإلى رجال الحكم فى فرنسا حتى يقفوا أولا بأول على أخبار الغزو وحتى تقوى روحهم المعنوية. وكان مقرها فى ميدان الأزبكية ، وقد زار إدارتها بعض كبراء المصريين فى ذلك الوقت ، ومنهم عبد الرحمن الجبرتى ، وشاهدوا كيف يجرى العمل وأبدوا إعجابهم ودهشتهم [٢٥] !

ويلفت أحد كتاب (لاريكاد) وهو (تاليان) J. L. Tallieh نظرنا إلى أن جهود الحملة العلمية كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الفرنسيين بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة ، يقول فى أحد مقالاته : " .. والهدف الذى نضعه نصب أعيننا هو تعريف أى عدد من الناس بمصر ، وليس كافيا أن يعرفها الفرنسيون الموجودون فيها فحسب ، وإنما أن تعرفها فرنسا بل أوربا كلها ، فقد تأكد حتى الآن أن موارد هذه البلاد العظيمة وخصائصها الطبيعية ليست معروفة لدى الكثيرين معرفة كافية [٢٦] .

لقد كان هدف حملة بونابرت تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا. ولتحقيق هذا الهدف ، لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش . لقد أدرك معظم رجال الحملة منذ البداية تقريبا ، أنه مقضى عليهم بالفشل ، وأن الفظائع التى يقترفونها ويعانون منها لا جدوى منها على الإطلاق ، أما العلماء الذين كان أهم أهدافهم غزو المعرفة واستخدامها فى نفع الإنسان ، فلم يكن ممكنا أن يعاورهم هذا الإحساس باليأس ومن ثم نرى رجلا مثل (جوفروا سانتلبير) يستطيع أن يكتب إلى كوفييه فى غمرة الأهوال التى كانت كابوسا مزعجا لغيره من رجال الحملة : "هنا أجد من جديد رجالا لا يفكرون إلا فى العلم أننى أعيش فى قلب دوامة تشغى بالفكر .. إننا نشغل أنفسنا فى حماسة بجميع الموضوعات التى تهم الحكومة ، وبالعلوم التى كرسنا أنفسنا لها بمحض اختيارنا " [٢٧].

ومما يجدر ذكره أن العلماء الذين وفدوا إلى مصر مع الحملة كانوا ينتمون إلى هيئتين منفصلتين كان لكل منهما قوامها الخاص بها ، ولا يربط بينها سوى صلة العلم وتضافر الجهود العلمية فحسب ، هما (لجنة العلوم والفنون) و(المجمع العلمى المصرى) ، أما الأولى فكانت تلك التى تألفت فى فرنسا كجزء من الحملة الذاهبة إلى مصر ، وأما الثانية هيئة (المجمع العلمى) فكانت تلك التى تم تشكيلها فى مصر بعد أن دخل نابليون القاهرة ، فقد صدر قرار من حكومة الإدارة فى ١٦/ ٣/ ١٧٩٨ يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف بونابرت المهندسين والبناءين وغيرهم ، من أعضاء الهيئات التى تخضع لإشراف وزارة الداخلية ، وكذلك مختلف الأشياء التى يريدها بونابرت لحملته [٢٨] .

وهكذا عاش العلماء فى مصر عيشة دأب وبحث وتنقيب ، وانتشر أفرادهم وجماعاتهم فى طول البلاد وعرضها يفحصون ويكشفون ، ولا يمنعهم تفشى الأوبئة والأمراض وخصوصاً الرمد والطاعون ، ولا يصدهم الخوف من تلك الاضطرابات والثورات التى

اقتضـــى إخمادها قيام الفرنسيين بالعمليات العسكرية العنيفة فى الوجهين البحرى والقبلى ، بل صـــار هؤلاء العلماء وزملاؤهم من الرسامين وسائر الفنيين يخرجون مع الحملات المرسلة لإخضـــاع المـــدن والقـــرى ، أو مطاردة المماليك ، فيقومون بدراساتهم وينقبون عن الآثار ويفحصـــونها ويرسمونها ، ويحاولون إماطة اللثام عن تاريخ هذه البلاد القديمة وحياة شعوبها بيـــنما يشـــتبك الجنود مع الثوار أو البكوات المماليك فى مناوشات دامية أو معارك طاحنة ، وكثـــيرا مـــا أصـــيب بعض هؤلاء العلماء بجراح خطيرة أو لقوا حتفهم بسبب هذه العمليات العســـكرية ، وكثـــيرا مـــا ســـقط آخـــرون فريســـة لوباء الطاعون أو لغيره من الأمراض المستعصية [٢٩] .

ولكن ماذا كان موقف العلماء المصريين ؟

يقول بونابرت فى مذكراته أنه لكى يسوس هؤلاء الناس – أى المصريين – لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وكان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقـــد فضـــلت العلماء ، وفقهاء الشريعة لأنهم – أولا– كانوا كذلك – أى رؤساء بطبيعتهم – وثانيا – لأنهم كانوا مفسرى القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات تنشأ عن أفكار دينية ، وثالثاً – لأن للعلمـــاء خلقـــا لينا ، ولأنهم – دون نزاع – أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصانا ، ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، وقد أخذت منهم كثيراً ، واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب .. " [٣٠] .

وإذا كـــان هناك كثيرون من المؤرخين الذى أفاضوا فى اتصالات مباشرة قامت بين علمـــاء الأزهـــر وعلماء الحملة مثل الجبرتى والخشاب والعطار بصفة رئيسية وأنهم شاهدوا الكثير من التجارب والأجهزة والأعمال العلمية الفرنسية [٣١] ، إلا أن " الأثر " لم يكن واضحا بحيث تكون له القدرة على التغيير والتوجيه .

يقـــول كريستوفر هيرولد [٣٢] أن شهادة شهود العيان الفرنسيين تجمع على أن زوار المجمـــع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع . ولكن رواية الجبرتى تكذبهم . لقد توقـــع الفرنسيون بالغرور المعهود فى الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتوحشة ، ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين أنهم هم المذج الأقل بصـــرا بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثر بما شهدوا ، " لقد تأثر الشيوخ ما فـــى ذلك ريب .. بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من إعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة

ولكـــنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب .. فأى الرجلين كان أكثر مذاجة ؟ أهو الشرقى الذى لـــم يسمع من قبل بالكهرباء ، أم الأوربى الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقا أبديا فى السيادة على غيره ؟

مسالك الثقافة الغربية إلى الفكر العربى

إذا كنا نستخدم هنا مصطلح (الثقافة الغربية) فإننا لا نقصره كما جرت عادة كثيرين علـــى غـــرب أوربـــا والولايات المتحدة الأمريكية وإنما نقصد به أوربا بشرقيها وغربيها ، وكذلـــك أمـــريكا ، واضـــعين فـــى الاعتبار بطبيعة الحال أن غرب أوربا والولايات المتحدة سيســـتأثرون بـــالكم الأكبر من الدراسة اتساقا مع حركة التاريخ – كما سنكشف عنها – التى تؤكد أنهما مصدراً " التأثير " الأكبر والأهم والأخطر .

كذلـــك فـــإن حديثـــنا إذا كان سيتناول (الفكر العربى) فى كليته من حيث خضوعه لمؤثرات الثقافة الغربية ، فإن ذلك إنما يعكس مسلمة رئيسية تقوم عليها هذه الدراسة ، وهى أن الفكر التربوى ، إن هو إلا شريحة من هذا الفكر (الأب) وبالتالى ، فإن معظم ما خضع لـــه هـــذا المصدر الرئيسى ، خضع له بالتالى ذاك القطاع التربوى ، وإذا ما حدث اختلاف ، فإنما هو فى الدرجة وفى سعة الانتشار أو التأثر .

ولعلـــنا بعد هذا نستطيع أن نحمل المسالك التى انتقلت عن طريقها المؤثرات الأجنبية الغربـــية إلـــى فكرنا العربى بصفة عامة ، والتربوى بصفة خاصة من الدروب الآتية والتى تـــتفاوت أهمـــية وقـــوة وفاعلية باختلاف الزمان والمكان والقوة المؤثرة والأهداف المطلوب تحقيقها عن طريقها :

١ – الاستشراق

يعـــود اهـــتمام الأوربيـــن بالإنتاج الفكرى العربى والإسلامى إلى العهود الإسلامية الأولـــى [٣٣] ، وأخذ هذا الاهتمام يزداد مع الزمن فكان من العوامل الرئيسية فى نهضة أوربا العلمـــية والأوربـــية فى مطلع العصور الحديثة ، وتولت الكنيسة الكاثوليكية العناية بالمؤلفات العربـــية تنشرها وتترجمها إلى اللاتينية . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، أنشأ الرهـــبان اليســـوعيون مدرســـة لتعليم اللغة والآداب العربية فى روما ، وأخذت الإرساليات

التبشـــيرية فـــى الـــبلاد تنقل المؤلفات العربية إلى أوربا فامتلأت بها مكتبات باريس ولايدن وإكسفورد ولندن وبرلين وفينا وروما .

ومن متابعة الحركة الاستشراقية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر نلحظ أنها كانت تقف من الثقافة العربية والإسلامية موقف الدفاع أكثر منها موقف الهجوم تستقبل بعض عناصـــرها ، ولكنها لم تحاول أن تنال من تلك الثقافة ولا أن تلقى عليها بعناصر التشويه التى يندر لنا أن نواجهها خلال القرن التاسع عشر .

ويمكـــن القول بأنه منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر أضحى الاستشراق أداة أساسية من أدوات الغزو الاستعمارى فى المنطقة العربية .

أولاً : فهو وسيلة النفوذ الغربى والسياسة الأوربية لفهم العالم العربى سواء لاكتشاف نواحى الضعف أو نواحى القوة .

ثانـــيا : وهـــو أداة القـــوى الاستعمارية لاستقطاب القوى غير المسلمة وبذر عناصر الطابور الخامس فى تلك الأقليات .

ثالثاً : وهو الأداة الحضارية لإعادة تشكيل منطق الطبقات القيادية [٣٤] .

ومـــنذ بدايـــة القـــرن العشـــرين تحول اهتمام المستشرقين عن الدراسات القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التى تتابع تطور الفكر الإسلامى والمجتمعات العربية فى مختلف المناطق ، وهى دراسات موجهة هادئة يساير تطورها ، تطور السياسة الاستعمارية واتجاهها إلى التغريب ، وذلك واضح من كلام (جب) H.A.R Gibb الذى قدم به مجموعة البحوث الـــتى قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان (إلى أين يتجه الإسلام ؟) – بالإنجليزية – والـــذى ظهـــر ســـنة ١٩٣٢ ، فهـــو يقرر فى هذه المقدمة أن مشكلة الإسلام – بالقياس إلى الأوربيـــين – ليســـت مشـــكلة علمـــية (أكاديمية) فحسب ، فإن لتعاليم الدين الإسلامى من السيطرة على المسلمين فى كل تصرفاتهم ، ما يجعل له مكانا بارزا فى أى تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامى ، فالإسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية ولكنه حضارة كاملة [٣٥].

ومـــن الواضـــح أن ســـبب هذا التحول فى جهود المستشرقين عن دراسة العصور الإســـلامية الأولى فى صدر الإسلام إلى دراسة العصر الحديث هو أن هذه الدراسات موجهة لمعرفة خصائص الشعوب الإسلامية والعربية ، ومعرفة أمثل الطرق فى التعامل معها لخدمة المصالح الاستعمارية . من أجل ذلك كان الاهتمام بالقيم الإسلامية والعربية الأولى حين كان

سلوك العرب امتدادا لسلوك آبائهم وأجدادهم ، وحين كان تاريخهم امتدادا للتاريخ العربى والإسلامى ، فلما بدأت جهود الاستعمار فى التغريب تؤتى أكلها وبدأت آثاره واضحة فى سلوك العرب المعاصرين الذى أصبح ينم عن التبعية ، تحولت دراسات المستشرقين لرصد هذا التطور . أما أهم الوسائل التى اتبعها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق فهى [٣٦] :

١- إنشاء كراسى للغات الشرقية فى الجامعات الأوربية جميعها .

٢- إنشاء المكتبات الشرقية التى تحتوى على ملايين من الكتب والمخطوطات والنفائس العلمية والأدبية والتاريخية .

٣- إنشاء المطابع الشرقية .

٤- الجمعيات الأسيوية والمجلات الشرقية .

٥- المتاحف الشرقية .

٦- المؤتمرات الدولية [٣٧].

وقد أخذ بعض مفكرونا بأعمال المستشرقين وأعجبوا بها مما كان لابد أن يكون له دوره فى التأثر باتجاهاتهم ، فهذا هو طه حسين على سبيل المثال يصور علاقته بالمستشرق كازانوفا الذى علمه تفسير القرآن فى الكوليج دى فرانس قائلا [٣٨] : "عرفته أستاذا فى الكوليج دى فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابا لم أعرف له حدا ، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكن لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا فى إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه ، والكشف عن أسراره وأغراضه ، فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيى أو قل حتى ذهب رأيى كله ، وما هى إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر فى تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق فى تأويله ، فتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالما حاذقا ، ولا لأن منهجه فى البحث كان متقنا دقيقا حصيفا ، بل لهذا الشىء آخر خير من هذا ، كان حرا خصبا رفيقا لا يتعصب لرأى ولا يتأثر بهذه العواطف النكرة التى تقسر على الناس علمهم وأدبهم وفنهم وحياتهم العقلية والشعورية . بوجه عام كان كازانوفا مسيحيا شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التعصب ، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى

فـرانس نسـى المسيحية واليهودية والإسلام وكل شئ ، إلا أن لها نصوصا يجب أن تخضع للبحـث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاءون من ألوان البحث والامـتحان . نعم لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه ويكتشف معناه" .

والحـق أنه من الصعب التسليم بمثل هذه " الحيدة " المطلقة بالنسبة لهذا المستشرق ، فضلا عما كان يراه من الحرية المطلقة فى القول بأن القرآن من كلام محمد وأن آيات القرآن يمكن أن توصف بالقوة والضعف !

٢ – التبشير :

مـن أقـوال زعمـاء المبشـرين عن أهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه (الإسـلام والإرساليات) : إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما إذا ظلوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير [٣٩] .

وينصح القس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفريق المسلمين ، وهو نفس المعنى الـذى عبر عنه براون فيما قبل بقوله فى كتابه : " إن الوحدة الإسلامية تجمع أمال الشعوب السـود وتسـاعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسـر شـوكة هـذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى ثوب جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز منها [٤٠] .

ونحن إذ نشدد النكير على " التبشير " فلأنه كان " حصان طروادة " للاستعمار ، ولو كان خالصا لوجه الله والدين ما كنا نقف منه هذا الموقف ، يقول (غاردنر) :" إن القوة التى تكمـن فـى الإسلام هى التى تخيف أوربا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الإسلام والغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر فى فلتات لسانهم فإذا هى سياسية " [٤١].

إن يوليوس رشستر يؤنب النصارى على قصور نظرهم فى أثناء العصور المتطاولة الـتى تلت ظهور الإسلام ، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين ، وكانت الإمبراطورية البيزانطية تغيـب شـيئا فشيئا فى الإمبراطورية الإسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الأتـراك العثمانييـن ، ولا ريب فى أن رشستر يتألم للناحية السياسية لأنه هو نفسه يذكر أن سكان الإمبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالإسم [٤٢] .

وكان القس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين أول من ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانية ، وعقد مؤتمر بالفعل فى ٤/ ٤/ ١٩٠٦ بالقاهـرة ، وقـد صنف هذا المبشر كتابا جمع فيه بعض تقارير عن التبشير وسماه (العالم الإسـلامى اليوم) وجاء فى هذا الكتاب قول سكرتير المؤتمر أن الخطة العدائية التى انتهجها الشـباب المسـلمون المتعلمون اضطرت المبشرين فى القطر المصرى إلى محاولة إعادة ثقة الشـباب المسلمين بهم ، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات فى موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين ، رغبة فى جلب قلوب المسلمين إليهم " وأنشـأوا بعد ذلك فى القاهرة مجلة أسبوعية أسسها (الشرق والغرب) افتتحوا فيها بابا غير ديـنى يبحـثون فـيه الشئون الاجتماعية والتاريخية ، وأسسوا أيضا مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة ، والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومحادثتهم فى أثناء البيع .

وبعد ثلاث سنوات فقط من ذلك توصل المبشرون إلى النتائج التالية [٤٣].

١- أنهم عرفوا أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم وعواطفهم وميولهم .

٢- أنهم حصلوا على ثقة عدد من المسلمين بهم .

٤- أن المبشـرين تحققوا أنهم بتظاهرهم فى وداد المسلمين وميلهم إلى ما تطمح إليه نفوسهم من الاستقلال السياسى والاجتماعى والنشأة القومية يمكنهم أن يدخلوا إلى قلوبهم .

وقـد بدأت الإرساليات التبشرية تفد إلى بلاد الشام فى القرن السابع عشر ، وفى العام ١٨٤٧ أنشـأ المبشـرون البروتسـتانت (الجمعية السورية) فى بيروت لغرض نشر العلوم وترقـية الفـنون بين العرب ، وكان من أعضائها البارزين ناصيف اليازجى والمعلم بطرس البسـتانى والدكتور ميخائيل مشاقة وميخائيل مدور ونظمة ثابت وانطونيوس الأميونى ، ومن الأجانـب القـس عالى سميث والدكتور فانديك والقس طومسون والمستشرق منصور كرلتى والدكتور يوحنا ورثبات وتشرشل . وفى عام ١٨٥٢ أصدرت هذه الجمعية مجلة تحمل اسمها وعهد إلى المعلم بطرس البستانى بتحريرها [٤٤] .

وفـى سـنة ١٨٥٧ أنشـئت الجمعية العلمية السورية على غرار الجمعية السورية ، واختلفـت عنها بأنها كانت خليطا من المسلمين والمسيحيين ، وظلت عاملة حتى عام ١٨٦٨ وحصلت على اعتراف الدولة العثمانية الرسمى بها [٤٥].

وشهدت الجزيرة العربية نشاطا خطيرا للإرسالية الأمريكية العربية وهى بروتستانتية قـام بتشكيلها الدكتور لانسنج Lansing الذى كان والده نفسه مبشرا فى سوريا لمدة طويلة فـى النصـف الأول من القرن التاسع عشر ، ولانسنج هذا كان أستاذ اللغة العربية فى معهد اللاهوت فى (نيوبرونسوك) New Brunswick فى ولاية نيوجرسى الأمريكية ، وبدأت الإرسالية نشاطها الفعلى سنة ١٨٨٩ (٤٦) .

وأقامـت الإرسـالية عـدة (محطات) بأولها فى البصرة بالعراق التى أصبحت فى السـنوات التالـية مركزا وقاعدة لعملياتهم فى منطقة الخليج العربى ، وعند استقرار أوضاع الإرسـالية فـى البصرة رأى المبشرون أن الوقت قد حان لافتتاح محطة جديدة فى الخليج ، ووقع اختيارهم على البحرين ، وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ، واستطاعت فى السنة التالية أن تنشئ مستشـفى ومدرسة ، ثم تحركت الإرسالية بعد ذلك لإقامة محطة أخرى فى مسقط ، وكانت مسـقط تعتـبر موقعـا حساسا إذ كانت تسيطر على الطرف الجنوبى للخليج العربى ، وكان التبشـير فـى تلـك المنطقة بالذات على درجة كبيرة من الأهمية للدور التاريخى الذى لعبه العمانيون فى شرق أفريقيا (٤٧) ، وبعد ذلك انتقلوا لافتتاح مركز آخر فى الكويت ...إلى غير ذلك من محطات ومراكز .

وبعـد خمس وثمانين سنة من النشاط المتواصل للإرسالية العربية فى الخليج العربى اتخـذ مؤتمر الكنيسة الإصلاحية المنعقد فى شهر مارس سنة ١٩٧٣ قرارا بوضع حد لعمل الإرسـالية العربـية الأمريكية والمؤسسات التابعة لها . ومنذ ذلك التاريخ والإرسالية مغلقة رسميا وصارت كل واحدة من مؤسساتها تدار محليا ، وأصبحت علاقتها بالكنيسة الإصلاحية مجرد علاقة أدبية (٤٥) .

٣- دور النشر :

والملاحظـة الأساسـية التى تبرز أمامنا هنا هو أن الدول الكبرى إذ تنشئ فى البلاد العربية مراكز لنشر ثقافتها وعلومها ، فإن الطابع الغالب يكون سياسيا وإن تغلف بغلاف من الرغبة المعلنة فى توسيع دائرة الثقافة وتبادل المعلومات ، وربما يكون من العسير علينا تتبع الأمثلة على ذلك ، ومن هنا فسوف نكتفى بمثال واحد لمؤسسة للنشر كان لها دور خطير فى ثقافتـنا المعاصرة وخاصة فى مجال الفكر التربوى وذلك نظرا للكم الكبير من الكتب التربوية التى نشرتها ، ولذلك التعاون الوثيق الذى تم بينها وبين القيادات المسئولة عن التعليم .

فقـد ابتدأت "مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر " القاهرة – نيويورك ، وهى المؤسسة التى ظلت تطالعنا يوميا بإعلاناتها عن الكتب الهامة جدا " كتب لابد أن تقرأ " نشاطها الثقافى بالقاهـرة مـنذ سـنة ١٩٥٣ وذلـك تنفيذا لاتفاقية عن التبادل الثقافى بين الحكومة المصرية وأمـريكا ، وأخذت مؤسسة فرانكلين بنيويورك على عاتقها تنفيذ عملية التبادل الثقافى هذه ، علـى أن تضـطلع بمهمة (نقل أمهات الكتب الأمريكية) إلى اللغة العربية ، واقترح عليها بعـض المثقفين ممن استشارتهم هذه المؤسسة حينذاك ألا تكتفى بنقل الكتب الأمريكية فقط ، بـل يحسن أن ينقلوا إلى العربية أمهات الكتب الإنسانية والعالمية أيا كانت ، ولكن المؤسسة كانـت تعـرف تمامـا الغاية التى تعمل لها وهى نشر كل ما هو أمريكى أو يعبر عن وجهة نظـرهم فقط أولاً وقبل كل شئ ، وضربت بهذه النصيحة وأمثالها عرض الحائط أو عرض البحر [٤٩] !

وكـان المفـروض أيضا أن تساعد هذه المؤسسة على نقل أمهات الكتب العربية إلى اللغـة الإنجليزية ، ولكن ذلك لم يوضع قط موضع التنفيذ الجاد لأن المقصود فقط هو التسلل إلـى الثقافة العربية كهدف مرحلى من أهداف نشر هذه المؤسسة للثقافة ، هدف غايته البعيدة احتواء الثقافة العربية وطبعها بطابع معين .

وفى مقدمة المستشار العام للمؤسسة التى قدم بها قائمة مطبوعاتها عن المدة ١٩٥٣-١٩٦١ ، زعـم أن المؤسسـة تلتزم بعض المبادئ ، وهى أنها لا تنشر كتب الدعاية ، وأنها تتجنـب المسائل الخلافية من سياسية ودينية ، وأنها تختار الكتاب الجيد ، وأن الكلمة الأولى والأخـيرة فى اختيار الكتب " للخبراء والمستشارين من العلماء العرب " ، والحقيقة المعروفة التى لم يذكرها أن الموافقة النهائية على نشر أى كتاب لابد أن تأتى من نيويورك [٥٠] !!

وقـد كانت هذه المبادئ المعلنة والمدعاة محاولة للتغلب على ما واجهت به المؤسسة مـن كشـف لحقيقتها كمؤسسة تروج بيننا فكرا غير قومى فى أحسن حالاته ، واستطاع أن يجعـل مـن هـؤلاء الخـبراء والمستشارين من العلماء العرب متحدثين باسم المؤسسة بل ومدافعيـن عـنها ، وأن يجعـل المؤسسة تتولى تنفيذ " مشروع " الكتب الدراسية والمراجع الأمريكـية المـترجمة لحساب وزارة التربية والتعليم فى مصر تنفيذا لتشريع الأمريكى الذى يجيز استخدام جزء من فائض ثمن الأغذية التى تبيعها أمريكا فى الأغراض الثقافية والتعليمية

حتى وصل الأمر أن توزع المؤسسة على المدارس من كتاب واحد حوالى ٣٦ ألف نسخة .. بالمجان !!

وعـندما يـتحدث وكيل وزارة التربية والتعليم فى مصر فى الفترة المشار إليها مثلا وأساتذة فى معاهد المعلمين وكلية التربية وكبار المديرين عن هذه المؤسسة ويحثون المعلمين العرب على قراءة هذه الكتب والاستفادة بها ، وعندما يشيدون بجهود هذه المؤسسة الثقافية ، فإنما يستغلون أسوأ استغلال وأبشعه عملهم ووظائفهم الإشرافية والقيادية وسلطتهم فى الدعاية لمؤسسـة أجنبـية وفـى العمل على تكوين الولاء لها لدى المواطنين من مرؤوسيهم ، وهم يسـاعدون بذلك على تنمية الثقة لديهم فى هذه الكتب وفى (الثقافة) التى تقدمها ، ويعملون بذلك على أن ينزعوا منهم الموقف النقدى إزاء ما يقرءون – أى الموقف الذى ينبغى أن يعود المعلمون قراءتهم عليه – وبالتالى يسلمون بصحة ما يقرءون وتبنيه ولا يتخذون موقفا مستقلا فى ثقافتهم [٥١] .

ومن كتاب (الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين) ننقل هذه الفقرات التى تبرز لنا الفلسفة الاستعمارية : "أن منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شئ ..."

" ليس فى أراضى الشرق الأوسط ترسبات معدنية ذات قيمة .. فليس من المحتمل أن يشـهد الشـرق الأوسـط يومـا ما ..تقدما فى ميدان الصناعة عدا الصناعات التى تختص باستخراج المنتجات الزراعية [٥٤] .

ومعـنى هـذا الكلام الذى ترجمه وعنى بالتعليق عليه أساتذة جامعيون أن السياسات العربية للتصنيع نقش على ماء لا طائل منها .

وفـى بدايـة سـنة ١٩٥٧ ، والعالم العربى يلفق جراحه من آثار العدوان الثلاثى ، كانت الولايات المتحدة تستعد لأن تحل محل بريطانيا وفرنسا فى منطقتنا عن طريق ما أسمته (مشـروع ايـزنهار) ، وعن طريق الثقافة حاولوا أن يبرروا المشروع ، فأصدرت الشركة المـتحدة للنشـر والتوزيع بالقاهرة (غير معروفة المصدر) كتابا بعنوان (مبادئ السياسة الأمريكـية) دفاعاً عن الاستعمار الجديد الأمريكى فنقرأ فيه : ".. فالتوسع الأمريكى لا يعنى بالضـرورة إنشاء إمبراطورية تقوم على أساس من القوة ..إن الولايات المتحدة فى الحقيقة – لا تسـتطيع أن تعفـى نفسها من مسئولياتها حتى لو أرادت ذلك .. فالفراغ الناشئ عن تدمير

دول الأمس القوية – ألمانيا واليابان – وضعف بريطانيا وإيطاليا وفرنسا ، يجب أن يملأ ... وليس لنا فى الواقع خيار فى ذلك " [٥٣] !

٤ – المدارس الأجنبية

والكم الأكبر من المدارس الأجنبية التى أنشئت فى أرجاء العالم العربى ، كانت تقيمه الإرساليات التبشيرية ، فضلا عن القوى السياسية المختلفة . والحق أن الدول الغربية ما طرحت إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة أفريقيا أو من الشرق عموما إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس ، ومن ثم تتخلق بأخلاقهم ليمهدوا لها طريق الافتتاح والاستعمار ، علما منها بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم دينية كانت أو فنية ، وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر ، لا يلاقون معارضة أو ممانعة لأن حجتهم نشر العلم والتهذيب ورفع لواء التمدن ، ومتى تأسست المدارس الأجنبية وفتحت أبوابها للراغبين ، استأثر بالتعليم فيها رجالها القادمون لهذه الغاية [٥٤] .

وتتساءل جريدة (المؤيد) التى كان يصدرها الشيخ على يوسف بالقاهرة فى أوائل القرن العشرين : هل يتصور أن قوما جازوا البحار وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا لديهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟ ثم تجيب على هذا التساؤل بأن ذلك مخالف للبرهان العقلى والدليل النقلى والشواهد المحسوسة . وبطبيعة الحال يصعب علينا القول بأن غرض هذه المدارس هو مجرد التكسب ، ذلك أن بعض هذه المدارس كان يتقاضى من التلميذ دراهم قليلة ، والبعض كان يقبل التلاميذ الفقراء مجانا ، بل إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية فى مملكتها تنفق عليها النفقات الطائلة ولا يكون ذلك عبثا ، فالغرض إذن غرض سياسى بالدرجة الأولى [٥٥] .

ولا نستطيع أن ننكر أن هذه المدارس قد أخرجت عددا من الخريجين العرب الذين يتقنون اللغات الأجنبية وخاصة اللغتين الإنجليزية والفرنسية ويجيدون التحدث بها وكتابتها ، غير أن هذه المدارس كانت تشكل الشباب العربى تشكيلا يناسب اتجاهاتها وأغراضها سواء أكانت دينية اجتماعية أم سياسية وتوجه تفكيرهم الوجهة التى ترغبها ، فقد كانت بعض الكتب الدراسية التى تفرضها بعض هذه المدارس على تلاميذها موضوعة بطريقة استعمارية لا تتمشى مع الاتجاهات القومية العربية . والثابت مما وجد من كتب فى مكتبات هى المدارس أن كل نوع من أنواع التعليم يتبع دولة معينة لها مصالح خاصة فى البلد العربى ، كان يقوم

بدعايـــة واســـعة لـــتلك الدولة ، وكانت الكتب التى تعطى لتلاميذ هذا النوع من التعليم تشمل تمجـــيدا لـــتلك الدولـــة ، وشـــملت بعض الكتب أفكارا كان لها أثرها السئ على تلاميذ هذه المـــدارس ، فالفكـــرة الـــتى كانـــت توجه فى كتب المدارس الأجنبية فى مصر أن مصر بلد زراعـــى وليس بلدا صناعيا رسبت فى أذهان كثيرين عجز مصر أن تنهض نهضة صناعية. كذلـــك الأفكـــار الاســـتعمارية التى كانت توضع فى تلك الكتب لبث الفرقة بين أبناء الوطن العـــربى وتمجـــيد الاســـتعمار والمستعمرين ودراسة تاريخهم بشكل يمجدهم ويضع بين يدى التلامـــيذ صـــورة واضحة عن تفوقهم المادى والعلمى والأدبى ، هذا مع إغفال تاريخ العرب وعظمة المنطقة وثروتها وحضارتها الأصلية [٥٦] .

ولهذا نجد خريجى معظم هذه المدارس لا يعرفون عن تاريخ بلادهم وجغرافيتها شيئا فى الوقت الذى يعرفون فيه تفاصيل كافية عن تاريخ الدولة التى تتبعها هذه المدرسة ، فتلاميذ المـــدارس الإنجليزية مثلا ، كانوا يدرسون تاريخ إنجلترا وجغرافيتها واقتصادها بالتفصيل ، ويخـــرج التلمـــيذ مـــن هـــذه المـــدارس وهو لا يعرف عن بلده شيئا بالمرة اللهم إلا الأفكار الاســـتعمارية الخاطـــئة عنها مما يوجد عرضا فى الكتب التى تتناول تاريخ إنجلترا ، ويذكر تـــاريخ الـــبلد العـــربى فيها كمستعمرة ومن وجهة النظر الإنجليزية . والتلميذ العربى هنا لا يعرف وجهة النظر العربية لأنه لا يقرأ الكتب العربية ، فهو لم يكن يتقن لغة بلاده من ناحية ولا يكن الاحترام الكافى لهذه الكتب من ناحية أخرى [٥٧].

أمـــا مـــن الناحـــية الاجتماعية ، فإن تنوع التعليم – رغم أنه مرغوب فيه – وتنوع الـــثقافات المخـــتلفة المتعددة فى التعليم الأجنبى ، قد أثر على الأسر العربية التى توفد أبناءها وبـــناتها إلـــى هذه المدارس ، فقد نجد فى المنزل الواحد أن الأم ذات ثقافة أمريكية والأب ذا ثقافة عربية والإبنة ذات ثقافة فرنسية والإبن ذو ثقافة إنجليزية ، وعلى المستوى القومى نجد هـــناك مـــن يتشـــيعون للثقافة الفرنسية ومن يتشيعون للأمريكية أو الإنجليزية أو الألمانية .. وهكـــذا . ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص ، وبديهى أن ينشأ من ذلك تعارض كل هذه الثقافات والاتجاهات والعادات فى الأسرة الواحدة .

فـــإذا ما أردنا الوقوف على أمثلة من الجهود الأجنبية فى إنشاء المدارس ، فنجد أن مدرســـة عينطوره أقدم مدارس الإرساليات فى لبنان إذ أنشئت عام ١٨٣٤ من قبل المبشرين العزاريـــين ، وبعـــد ذلـــك بعام أنشأ القس وليم طومسون الأمريكى مدرسة فى بيروت وأقام

الدكتور كرنيليوس فانديك مدرسة عالية فى عبيه – لبنان. وفى ١٨٤٧ أنشأ المبشرون البروتستانت (الكلية السورية) التى كانت تدرس العلوم باللغة العربية فى بداية عهدها [٥٨] .

وبعد حوادث الفتنة الأهلية السورية سنة ١٨٦٠ ، أخذ المبشرون ينشئون المدارس والكليات الكبرى ، ففى سنة ١٨٦٠ ، أنشأت السيدة بوين طومسون (الكلية الإنجيلية الأمريكانية للبنات) ، وفى سنة ١٨٦١ أنشئت (الكلية الإنجليزية للبنات) ، وفى سنة ١٨٦٥ تأسست المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ، ثم مدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس فى سوق الغرب ، ونقلت هذه عام ١٨٦٦ إلى بيروت ، وأنشأ المطران السيد يوسف الدبس مدرسة (الحكمة) للطائفة المارونية سنة ١٨٦٥ ، كم أنشأ المرسلون الأمريكان (الكلية الأمريكية) فى بيروت سنة ١٨٦٦ بفضل مساعى دانيال بلس أول رئيس للكلية ، وأسس الأباء اليسوعيون (الكلية اليسوعية) فى غزير ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٤ وكانت الحكومة الفرنسية تنفق عليها [٥٩] .

وأسفرا التعليم المدرسى والتربية الأخلاقية اللذين يعنى بهما المبشرون عن نتائج خطيرة وأثمرا ثمرات ملحوظة فى الأطفال والمراهقين على حد سواء ، يقول القس (زويمر) الذى قاد جهودا كبيرة فى نشر التعليم الأجنبى فى الجزيرة العربية ، أنه جمع تلاميذه المسلمين ووضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ثم حول عليها نورا قويا وبرهن لهم بذلك على أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس إيمانا من عند الله لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة فى بعض البلاد [٦٠] .

وقد بدأت الخدمة التعليمية للإرسالية الأمريكية العربية فى البحرين فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الخدمة الطبية فيها ، وكانت أول مدرسة للتعليم الحديث على النظام الغربى أنشئت هناك هى المدرسة التى أقامتها الإرسالية فى سنة ١٨٩٢ ، والتى افتتحتها السيدة س . زويمر S. Zwemer ، وكانت هذه المدرسة هى الأولى من نوعها فى منطقة الخليج العربى وليس فى البحرين وحدها [٦١] .

وكان الآباء قلقين على أبنائهم خشية أن يتحولوا عن دينهم ، وكان المنهج التعليمى يتألف من اللغة الإنجليزية ، الكتاب المقدس ، الحساب ، اللغة العربية ، وفى مقابلة صحفية مع السيد ناصيف وهو أحد مدرسى الإرسالية القدامى حيث ذكر أن موضوعات المدرسة ، كانت هكذا وأضاف إليها : الحساب ، الجغرافيا ، التاريخ .

وحـــول طبيعة هذه المدرسة تحدث السيد أحمد إبراهيم أحد أقدم تلاميذ الإرسالية فى البحريـــن حيـــث قـــال : " لقد كانت الدراسة اليومية تبدأ عادة بالصلاة المسيحية وقراءة من الإنجـــيل . والواقع أننا رغم صغر سننا كنا نناقش مدرسينا فى ديننا حيث أننا قد تعلمنا الدين الإســـلامى فـــى البيـــت ، وكانت القاعدة الدينية لدينا متينة ، فكان من الصعوبة التأثير علينا دينيا [٦٢] .

وكانـــت الجامعة الأمريكية فى بيروت نموذجا فريدا ، فهى المركز الرئيسى للإشعاع الفكـــرى الغـــربى بصـــفة عامة والأمريكى بصفة خاصة ، خاصة وأن الأغلبية الساحقة من طلبتها عرب . ويسجل التاريخ حقيقة فاجعة هى أن ثلاثة أجيال من المفكرين والأدباء العرب علـــى الأقـــل ، تلقـــوا العلم فى رحاب هذه الجامعة ، فأثمرت فيهم أخطر ثمار الأيديولوجيا الغربـــية ، فليست مصادفة على الإطلاق أن تكون منابر (الحرية الليبرالية) والاقتصاد الحر والرأســـمالية الشعبية (والأدب غير الملتزم) و (القوميات الإقليمية الشوفينية) وغيرها من الشـــعارات والمـــناهج المعاديـــة لـــتقدم الوطن العربى وتطوره هى المنابر المدعمة بأموال (فورد) و(روكفلر) و (العلماء العرب) من مثقفى الجامعة الأمريكية فى لبنان [٦٣] .

وهناك دراسة خطيرة نشرتها مجلة (ميدل ايست جورنال) المجلد ٦ من / حـ٤ سنة ١٩٨٢ أجراها (ريموند هينبش) الذى كان أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة خـــلال العام ١٩٨٢/٨١ ثم انتقل ليعمل بجامعة مينيسوتا الأمريكية حول الاتجاهات السياسية لطلاب الجامعة الذين يلاحظ أنهم فى الغالب أبناء (الصفوة) فى مصر ، وتؤكد النتائج الأثر الخطـــير لمـــثل هذه الجامعة على اتجاهات الطلاب الذين يتولون – فى أغلب الأحوال وبحكم مواقعهم الطبقية الممتازة – مناصب قيادية [٦٤] .

– فحين سألهم أيا من الآتى تعتبره شخصيتك السياسية ، بمعنى لأى مجتمع تنتمى ؟
كانت إجاباتهم : مصرى (٧٠,٣%) عربى (١١%) مسلم (٩,٦%) .

– وحيـــن ســـألهم إذا أعطيـــت الحـــرية لتختار جنسيتك ، ما هو البلد الذى يمكن أن تختاره؟

أجابوا : مصر (٧٤%) الولايات المتحدة (٣٥%) العالم العربى (٦,٣%) .

– وعندما سألهم أيا من الآتى يصف بصدق شخصية مصر السياسية ؟ أجابوا :

•مصر قلب الأمة العربية (٥,٨%)

•مصر جزء من الحضارة الغربية وعالم البحر المتوسط (٣,٩%) .

•مصر أرض الفراعنة (٥٣,٩%) .

وبسؤالهم : هل مصر تنتمى إلى العالم العربى أجاب بالرفض (٢٨,٩%) .

وحين سألهم : هل على مصر التزامات تجاه العالم العربى ، أجاب بالموافقة (٢٨,٧%) ويؤكد الباحث الأمريكى أن عملية التغريب قد تركت أثارا بالغة على طبيعة الانتماء التى تميز هذه النخبة وأبناءها ، حيث يلاحظ أن ٦٦% من أبناء النخبة من طلاب الجامعة الأمريكية قد فضلوا العمل بعد التخرج خارج مصر ، وأن ١٣% فقط هم الذين قبلوا العمل بداخلها ولكن بمواصفات وشروط محددة !!

٥- الرحلات :

نقصد بالرحلات هنا تلك (السفريات) التى قام بها مفكرون عرب إلى بلدان الغرب المختلفة لأغراض متعددة ليس منها الحصول على درجة علمية وذلك حتى نميز بينها وبين (البعثات) ، وهناك بالطبع (آلاف) الرحلات التى قام بها عديد من العرب بقصد السياحة أو التجارة أو السياسة أو ما شابه ، فهذه أيضا لا نخصها بالذكر وإن لم تخل من أهمية بالنسبة لموضوعنا ، وقصدنا فقط بعض المفكرين المعروفين .

وممن يصادفوننا فى هذا الشأن (أحمد فارس الشدياق) المولود فى لبنان سنة ١٨٠٥ على أصح الأقوال[٦٥] .ويصور الشدياق ولعه بالأسفار فيقول :" هذا وقد كنت فى عنفوان شبابى ، وجدة جلبابى وازدهار سنى ، وازدهار ذهنى ، لهجا بالسفر والاغتراب والترحل عن الوطن والأصحاب ، إلى بلد ينضر فيه غرس وتطيب فيه نفس ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا" [٦٦] .

ولم يكن الشدياق من أولئك الجوابين الرحالين الذين يسافرون فقط ليقال عنهم أنهم سافروا ، ويجوبون الأقطار ليقال عنهم أنهم جابوا البلاد .. وإنما كان يجوب ليتعلم وليكتسب من أسفاره كل يوم جديدا . ولا تعود فوائد الخبرات عند الرحالة إليه وحده ، بل تعود إلى قومه الذين لابد أن يزودهم من رحلاته وتجاربه فيها بما يعين على تقدمهم ، فكثيرا ما كان يأسى الشدياق حين يرى أوربا متقدمة ويرى بلاده متأخرة متخلفة ، وإذا ما سره هناك منظر

أو راقه جانب من جوانب الحياة ، فإن هذه المتعة لا تلبث أن تغص بتفكيره فى أمر قومه وما هـم عليه من سوء حال .. وما أصدقه وهو يحدثنا عن ذلك فى الصفحات الأولى من رحلتيه إلـى مالطـة وأوربا قائلا : "ويعلم الله أنى مع كثرة ما شاهدت فى تلك البلاد من الغرائب ، وأدركـت فـيها مـن الرغائـب ، كنت أبدا منغص العيش مكدره كمن فقد وطره ، ولزمته معسـرة ، ولا يروقنى نضار ولا نضرة .. ولا طرب ولا هم، لما أنى كنت دائم التفكر فى خلـو بلادنـا عمـا عندهم من التمدن ، والبراعة والتفنن " ، فإذا ما تسلى ساعة بذكر مكارم أخـلاق قومـه وكـرمهم وغيرتهم على العرض ، عاد ثانية إلى التفكر فى المصالح المدنية والأسـباب المعاشـية ، وانتشـار المعارف العمومية ، وإلى إتقان الصنائع ، وتعميم الفوائد والمنافع ..، عاودته الأشجان ، وارتدت إليه الأحزان لخلو بلاده منها ، وأدركته الحسرة على ما فات أوطانه من أسباب تقدمها [٦٧] .

ولقـد خرج الشدياق من موازناته بين إنجلترا وفرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر بتفضـيل الثانـية على الأولى من حيث استتباب الأمن والنظام وندرة حوادث القتل والنظافة ونشـاط رجـال الشـرطة وسرعة استجابتهم ، وكثرة الدكاكين التى لا يخلو منها فى باريس موضـع ، وتنظيم البغاء والإشراف عليه وخاصة من الناحية الصحية ، وسهولة الاستعارات الخارجـية للكتـب مـن المكتـبات الملكية ، على حين يضن الإنجليز بها ، وكثرة المدارس ورخـص مصـرفاتها " حـتى أن الانكليز يبعثون أولادهم إلى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله فى بلادهم" [٦٨] .

أما محمد كرد على (١٨٧٦- ١٩٥٣) ، [٦٩] فاضطر إلى مغادرة الشام فى خريف ١٩٠٨ بعد أن نشر فى (المقتبس) ، مقالة أغضبت الوالى العثمانى ، فصادر الوالى الصحيفة وأغلـق المطبعة ، وزار كرد على بعض المدن الفرنسية ، ثم سافر إلى الأستانة ، وعاد إلى وطـنه فـى مطلـع سـنة ١٩٠٩ ، ورحـل ثانـية إلى إيطاليا سنة ١٩١٣ لمطالعة الكتب والمخطوطـات الثمينة فى مكتبة المستشرق الإيطالى (ليونى كيتانى) حتى يتمكن من وضع كتابه (خطط الشام) ، ثم توجه إلى سويسرا ، وبعدها زار فرنسا والمجر وألمانيا ، وقد ضمن الجزء الأول من كتابه (غرائب الغرب) مشاهداته وانطباعاته فى هذه الرحلات كلها ، وبين أن غرضـه منها ، كان السياحة والاستجمام فضلا عن البحث والدرس والتنقيب للتعرف على حقيقة المدنية الغربية .

إلا أن كـرد على قام برحلات معينة رمت إلى غرض لم يستهو رحالينا الآخرين فقد أرسـله جمال باشا (ت ١٩٢٢) قائد الجيش الرابع فى دمشق مع وفد فى رحلة " علمية إلى استانبول وجناق قلعة سنة ١٩١٥، وكانت غاية الرحلة الدعاية للدولة العثمانية (٧٠) .

ونجـد كـرد على يحيى باريس تحية المفتون المعجب :"سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسـان ، وملقحـة الأذهـان بالتناغى بحب الأوطان ، والداعية إلى دك عروش الجبارين والمخربين ..سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة ".

وعـندما نكـون بـإزاء موقف رحالينا من العلوم الغربية ، فسوف نجد اختلافا بين الموقف المصرى للبعض والموقف الشامى وذلك وفقا لاختلاف الظروف التى أحاطت بمصر وسـوريا ، فمصـر وقعت فى براثن الاحتلال الأجنبى المباشر منذ سنة ١٨٨٢ ، بينما تأخر ذلـك بالنسبة للشام ، ومن هنا نجد أن واحدا مثل المويلحى يوضح أن رقى الشرق قائم على اقتباس العلوم الطبيعية والعملية عن الغرب بقدر ما هو قائم على التمسك بالموروث من الدين والآداب الشـرقية ، وأكد جرجى زيدان وكرد على أن ارتقاء الشرق يترتب بالدرجة الأولى علـى تعلـيم العلوم الغربية (٧١) ، وإن كان المويلحى قد تمسك بالموروث الدينى والأخلاقى حرصـا مـنه علـى الهوية الشرقية ، فرحالتانا الشاميان شعرا بأن توجيه العناية الأولى إلى اقتـباس العلـوم الغربية لن يفقد العرب هويتهم اليوم ، كما أنه لم يفقدهم إياها قديما ، فنهضة العـرب فى عصرهم الذهبى . قامت بفضل التراجمة والنقلة ...لا بأيدى علماء الكلام " فكل مـن الرحالين الثلاثة تمسك بالماضى حرصا على الهوية ، ولكن المصرى المحافظ رأى أن إعـادة الماضـى يصون هذه الهوية ، فيما كان الشاميان أكثر تحررا إذ تمسكا بالماضى فقط ليستنتجا منه عبرة التطور المستقبلى (٧٢) .

لكن بلاد الشام عند ، اكتوت بنيران الاستعمار الغربى ، بدأ مفكروها – أو على الأقل بعضهم – يزيدون على الموقف المصرى .

ومـن الرحالة العرب أيضا نجد أمين الريحانى (١٨٧٦- ١٩٤٠) المولود فى لبنان ثـم هاجـر فى الثانية عشرة من عمره وأقام فى الولايات المتحدة ، وتعرف بعد ذلك بأوربا والـبلاد العربية ، سنة ١٩١٦. كان فى فرنسا ، ثم زار أسبانيا سنة ١٩١٧ ، وعلى أثر ذلك كتـب مقالـته " نـور الأندلـس " ، وبعض الرسائل ، وحوالى سنة ١٩١٨ زار يوكاتان فى المكسـيك ووضع فى الإنجليزية The Land of the Mayas الذى استمر مخطوطاً ، ولا

نعلـم إن كان قد طبع أم لا . [٧٣] وبين سنة ١٩٢٧ و ١٩٣٩ زار الريحانى الولايات المتحدة مرارا .

وقـد طـالع الـريحانى آداب الغرب قبل تعرفه إلى الأدب العربى ، بل هداه كارليل الإنجلـيزى إلـى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووشنجتن ايرفنج إلى روائع الفن العربى فى الأندلس ، وقد استشهد الريحانى بكتب غربية فى التاريخ والرحلة والتربية والنقد الأدبى ، وقـرأ الرومانتيكييـن والواقعييـن والفوق واقعيين : فمن كارليل وايرفنج وهينى ومرفنتس وهوجـو ولامرتيـن وغيرهم إلى زولا وبلزاك وتولستوى وجوركى وإبسن ورومان رولان ونجـد أشـارا كذلـك فـى كتاباته بالفلسفة الغربية ، فقد استشهد بدارون ونيتشه وماكيافيللى وإمرسون ورينان وهكسلى وكانط [٧٤].

وبالطبع هناك كثيرون من الرحالة .. وهؤلاء الذين ذكرناهم مجرد (نماذج) .

٦- البعثات :

ولـيس مـن شك فى أن إرسال طلاب من الدول العربية إلى الدول الغربية ليستمروا هـناك سـنوات عدة لا تقل عن أربع سنوات على وجه التقريب " للتلمذ " على أيدى الأساتذة الغربيين فى مختلف العلوم والفنون فى داخل معاهد أكاديمية مخصصة للتعليم والبحث ...كان ذلـك – فـى اعتقادنا – أقوى وأرسخ المسالك التى عبرت من خلالها المؤثرات الأجنبية إلى الثقافة العربية.

وقد ابتدأ محمد على يرسل الطلبة المصريين إلى أوربا حوالى سنة ١٨١٣ وما بعدها وأول بـلاد اتجه إليها فكره ، هى إيطاليا لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وغير ذلك من الفـنون ، أمـا أول بعثة علمية كبرى ، فقد أرسلت إلى فرنسا فى يوليه سنة ١٨٢٦ ، وأخذ أعضـاؤها ينـتظمون فـى سلك المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون بإشراف المسيو جومار [٧٥].

وعـندما سـافر رفاعـة الطهطاوى إلى باريس رأى من حضارة الغرب ما ارتفع به الغـرب علـى سـائر الأمصار ، فأخذ يحث " ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع ولعمر الله أننى مدة إقامتى بهذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه " [٧٦] . وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم ، وتدبيرهم بل وعلمهم ومعرفتهم فى الحروب ، وتنوعهم

واختراعهم فيها ، ولولا أن الإسلام منصور ، بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان تلاشى ، بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم "

فالرجل يؤمن بتفوق الغرب ، ويدرك أسباب تفوقه ، ويحث بنى وطنه على تلمسه والسعى إليه ، وعلى أهل العلم " حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة " ، فأخذ يعلم ويبشر بالعلم ويدعو إليه ، بعد أن أدرك أن تفوق الغرب على الشرق هو فى تقدمه وتفوقه فى مضمار العلوم والفنون والصنائع أو ما أسماها " العلوم الحكمية " (٧٧) .

وتوفيق الحكيم يكتب لنا نصاهما ما يصور فيه الأثر الأوربى عليه بأنه (إعصار) ، وهو تشبيه حقيقى وتصوير دقيق ، وهو مجرد مثال حدث لغيره مثل ما حدث له من طلاب العلم العرب الذين ذهبوا إلى الغرب ، لكن (روح الفنان) وأسلوب (الأديب) مكناه من أن يصور ويرسم بصدق تعبير .

فهو كان يريد دراسة الدكتوراه – فى بداية الأمر – فى الحقوق فأخذ يدرس الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس ، وقد جره أرسطو إلى دراسة الفلسفة اليونانية ، وكارل ماركس إلى هيجل والفلسفة اليونانية ، وكان التركيز – فيما يقول فى ذلك الوقت – على ماركس بالذات ، للحدث العظيم الذى شغل أوربا وقتئذ ، وهو ثورة روسيا واهتمام مفكرى العالم بهذه التجربة الإنسانية الحية وما تحمل فى طياتها من أمال (٧٨) ، ثم يقول بعد تعداد لبعض الكتب التى قرأها ودرسها :

" .. ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئا مخيفا ، لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها إعصار هائل قلب كل شئ ..."

ويذهب إلى صديق له ويطرح سؤالاً خطيراً : " أجبنى حالا : هل تؤمن حقا بالجنة والنار ؟ " ويدهش الصديق من التساؤل ، فيرد الحكيم : " إننا فى مرحلة يجب أن نطرح فيها كل شئ على العقل ليطمئن منا القلب " (٧٩) ، ثم يذكر مرة أخرى :

".. ولكنى كنت فى بيئة تفكير ، ولأول مرة أشعر بشئ خطير حدث فى حياتى ، هذا الانتقال السريع من عصر إلى عصر : كنت كسمكة النيل الهادئ ، خرجت فجأة إلى موج تبرق فيه الأفكار وترعد ، وتتخذ فيه العقول صورة الخيول ، تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الإنسانى ، كل حاجز تتخطاه ، وكل عقبة تقفز من فوقها ، والركود

عـندها هـو الموت ..إذن كنا أمواتا ونحن لا نشعر ، وأحسست بالعقل يتحرك كالهر حديث العهد بالجرى ، فرح بحركة سيقانه يثب عليها ، ويحاول الجرى مع الخيول " [٨٠] .

ووسـط عديـد مـن المؤثـرات ، نجد طه حسين يقع أسير ما تخلفه الحروب من إحباطات ، فقد صادفته الحرب العالمية الأولى فى فرنسا فينكر " محت الحرب من نفسى كل ثقـة ، وذادت عـنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة ، فأنا أحيا لغير شئ ، أو قل أنى لا أحيا ، وإنما أنتظر شيئا مجهولا " [٨١].

لكـنه لا ينسـى أن يزج بتلك التربية (الجاهلة) التى أحاطت به فى طفولته ، نتاج ثقافـة مـتخلفة وبيـئة متردية " .. فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى إلى هذا كله دفعـا ، وفرضت هذا كله على فرضنا ، لأنى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيتى وتعلـيمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب تدفعنى إلى يمين وتدفعنى إلى شمال وتقف بى أحيانا بين ذلك .. " [٨٢].

وكـان للارتـباط بالثقافة الفرنسية أثره بعد عودة طه حسين إلى وطنه سنة ١٩١٩ حيـث ارتبط بصداقة الكثير من المفكرين المعاصرين ، مثل (اندريه جيد) و (ماسينيون) و(سـارتر) و(بول فاليرى) ، وقد حاول أن يؤرخ للأدب الفرنسى فى بعض كتبه .. وله عديـد مـن المقالات يدرسا فيها البيئة الفرنسية والشعراء والفلاسفة الفرنسيين ويترجم بعض القصـص والروايات الفرنسية ، وحين عين عميدا لكلية الآداب ، أنشأ قسما جديدا للدراسات الفرنسـية علـى غـرار الأقسام فى جامعة السوربون وأتى بكبار الأساتذة الفرنسيين وشجع توجيه البعثات إلى فرنسا .

وتمـثل الـثقافة الفرنسية عند طه حسين نموذجا رائعا وصورة حية وامتدادا للثقافة اليونانـية فى تطور العقل البشرى وأثره العظيم فى كل عصر ، ويقف طه حسين عند الثقافة الفرنسية فى عصر النهضة وأول العصر الحديث بنوع خاص لأنها كانت " معتدلة وحريصة علـى ألا تقـيد المؤلف إلا بمقدار حرصها على أن تلائم بين ما تنتج على ما فيه من التجديد وبيـن ما هو قائم من النظام والتجديد " لأن الأمة الفرنسية التى هى متأثرة بالطبيعة اللاتينية ومـتأثرة بطبـيعة هـذه الحضـارة حضـارة البحر المتوسط ، قريبة فى عقلها من اليونانية واللاتينية [٨٣] .

ويبدى لويس عوض إعجابا شديدا بنمط العلاقات بين الجنسين الذى رآه فى إنجلترا وكتب عنه باللهجة العامية راويا ذكرياته أيام البعثة ، ويذكره هذا بالوضع فى مصر التى ينتقد ما سماه بالكبت الجنسى الشائع " جنسية بتنخر فى عقولنا وبتطفح ع الجلد زى الدمامل. شوفوا الكبت عمل فينا ايه ؟ .. تشوفه فى القشر الجنسى اللى بتسمعه من أصحابك .. كما أنى أقدر أشوفه فى الكمل الفكرى الملازم لأكثر المتعلمين ، وفى القلق اللى اتملك الناس ، والتفكير غير المنظم عند أغلب الشبان .. طبقة الأفندية فى مصر دى مش طبقة ، دى مجموعة من العقد النفسية اللى ما فيش أمل فيها إلا بتوجيه جنسى جديد أساسه الحرية المعتدلة والإطلاق اللى مبنى على فهم صحيح [٨٤] . وكتابة لويس عرض مثل هذا الكتاب باللهجة العامية مظهر واضح (لإقليمية) خطيرة حاولت أن تعزل مصر عن إطارها العربى .

والنص الذى اقتبسناه يمثل رؤيته للجانب الاجتماعى ، أما رؤيته للجانب العلمى والثقافى ، فنجده يقول بنفس اللهجة العامية :

" أى واحد عاش فى كامبردج يقول لك أن الواحد هناك بيتعلم من المحادثة مع الناس أكثر ما بيتعلم من الكتب ، وأن الحياة الاجتماعية نشاطها باين لكل عين .. لكن فيه نشاط تانى مش بابن لكل عين . كامبردج مش بس دعوات شاى وحفلات شيرى وسباق قوارب ، دا كلـه موجود ، لكن كمان فيه حاجة ثانية موجوده . فيه الجيش الاحتياطى اللى دايما يشتغل فى هدوء من الرجالة المرحانين المدهولين اللى نضارتهم تخينة وشعرهم واقع وما بيحلقوش مرتين فى اليوم . فيه ديدان الكتب اللى تنبش أوراق المكاتب وتحيى الميت وتموت الحى وتمهد السكة للأبطال اللى بينوروا السكة للإنسانية بأفكارهم الجديدة .." [٨٥] .

٧- وسائل الإعلام :

سعت الكنيسة الكاثوليكية الغربية منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر فى ضم الكنيسة الشرقية إليها ، فأرسل البابا إلى المشرق راهبين يسوعيين للاتصال بالطائفة المارونية ، وظل الراهبان سنة كاملة درسا خلالها حالة لبنان الدينية والاجتماعية ، ثم قفلا راجعين إلى روما بصحبة تلميذين أحدهما من لبنان والآخر من قبرص ، واقترح الراهبان على البابا قبول الشبان الذين يرشحون أنفسهم للكهنوت تلاميذ فى الكليات الأكليريكية بروما ، وتأسيس مطبعة فى تلك المدينة لنشر الكتب العربية والسريانية التى تحتاج إليها الكنيسة المارونية ، ووافق البابا على الاقتراحين ، ومن المرجح أن تكون المطبعة البابوية قد بدأت

عملهـــا فـــى ســـنة ١٥٨٣ ، أما مطبعة الراهبين اليسوعيين ، فقد جهزت بالحروف العربية والسريانية وتم لها طبع النص العربى من كتاب التعليم المسيحى سنة ١٥٨٠ [٨٦] .

وقـــد استطاع الرهبان الذين ابتعثوا إلى روما إقناع البطريرك المارونى بتأسيس أول مطبعة فى لبنان بدير قزحيا وبإنشاء مدرسة سيدة حوقة الاكليريكية[٨٧].

وفى سنة ١٨٢٢ اتخذ المبشرون الأمريكيون جزيرة مالطة قاعدة لنشاطهم فى الشرق الأدنـــى . ولمـــا كانـــت الطـــباعة وسيلة للدعاية لا يمكن الاستغناء عنها ، فقد قرر مجلس الإرســـالية فـــى أمريكا تأسيس مطبعة فى تلك الجزيرة لتعنى بنشر الكتب والكراسات للتبشير بديـــن المســـيح حسب المذهب البروتستانتى ، واستمرت المطبعة فى عملها اثنتى عشرة سنة أخرجـــت خلالها ٣٥٠ ألف نسخة من كتب وكراريس ، ثم نقل القسم العربى إلى بيروت سنة ١٨٣٤ [٨٨] .

وكان المبشرون الأمريكيون أو البروتستانت يزرعون لبنان طولا وعرضا ، يوزعون منشـــوراتهم ويؤسســـون المدارس لجذب الناس ، ومن هنا كان على اليسوعيين الكاثوليك أن يفعلوا على الأقل مثلما يفعل منافسوهم ، فقاموا يواجهون الدعاية بالدعاية ، ولما كانت الدعاية لا تســـتقيم إلا بمطبعة نقد أنشأوا هم الآخرين سنة ١٨٤٨ مطبعة كانت إيذانا ببداية نهر جديد لإغـــريق المـــنطقة بســـيل مـــن المطـــبوعات المبشـــرة بالثقافة الغربية من خلال اتجاه من اتجاهاتها [٨٩] .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى اهتمام نابليون بقضية (الإعلام) وجاء معه بمطبعة وكيف أنشأ صحيفتين لبث الأفكار الفرنسية فى مصر .

وشـــهدت المرحلة التى تلت انعقاد المؤتمر الصهيونى فى الأول فى بال سنة ١٨٩٧ ظهـــور نوعيـــن مـــن الصحف اليهودية فى مصر أولها الصحف الصهيونية التى أصدرتها الهيئات والجمعيات الصهيونية باللغة العربية والفرنسية فى المجتمع المصرى ، والنوع الثانى الصـــحف الـــيهودية التى أصدرتها الطائفة اليهودية بمصر ، وكانت ذات انتماء صهيونى ، ولكن تفاوتت درجات هذا الانتماء ومستوى التعبير عنه .

وفـــيما يتعلق بالنوع الأول ، فقد ارتبط ببدء ظهور النشاط الصهيوني فى مصر حيث بـــدأت تتكون الجمعيات الصهيونية التى كان لابد لها من تجسيد دعوتها وأفكارها فى صحف

ونشـــرات عدا أنواع النشاطات الدعائية الأخرى . وقد حاولت الجمعيات الصهيونية النفاذ إلى بعـــض الصـــحف التى تبنت وجهة النظر الصهيونية وأفردت صفحاتها للدفاع عنها ، وتأتى المقطم فى مقدمة هذه الصحف ، وكذلك المقتطف [٩٠] .

وكان صدور وعد بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ بمثابة نقلة هائلة للصحافة الصهيونية فـــى مصر ، إذ انتقلت التنظيمات الصهيونية من مرحلة الاعتماد على الصحف الحليفة سواء المصـــرية أو الـــيهودية إلـــى إصـــدار صـــحفها الخاصة بها المعبرة فى سفور عن آرائها الصهيونية [٩٢] .

ولمـــا بدأ الحس القومى العربى يستيقظ فى مصر منذ الثلاثينات إلى أوائل الأربعينات لجأت الصهيونية إلى وسائل أخرى خفية ، فقد فوجئ الرأى العام بصدور مجلة ثقافية ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودى صهيونى وتحمل واجهة حضارية لا تتحمل أثـــاره الشـــكوك حول انتمائها أو هويتها الحقيقية ، تلك المجلة هى (الكاتب المصرى) التى صـــدرت فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وكان يرأس تحريرها طه حسين ، وقد ضمت طائفة من الكـــتاب الأوربيـــن والأمريكيـــن ، إلى جانب الكتاب المصريين أمثال توفيق الحكيم ولويس عوض وسهير القلماوى وحسين فوزى وفؤاد صروف ونجيب الهلالى ويحيى الخشاب ويحيى حقى وشوقى ضيف ، ومن الملاحظ أن كثيرا من كتابها كانوا ممن لا يتعاطفون بوضوح مع القضية العربية القومية [٩٣] .

وقد تعرضت مجلة الكاتب المصرى لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف المصرية متهمة إياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وأن الهدف من إصدارها هو العمل على استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم إزاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

وكمـــا حـــدث بالنســـبة لمجلـــة الكاتب المصرى فى مصر ، حدث شئ مماثل لمجلة (حـــوار) التى كانت تصدر فى بيروت ، ففى العدد الصادر فى ٢٨/ ٤ / ١٩٦٦ من جريدة (النـــيويورك تايمـــز) الأمريكية أن هذه المجلة التى ظلت عدة سنوات تنشر لعدد كبير من مثقفى العالم العربى المقالات والدراسات كانت لها علاقة بالمنظمة العالمية لحرية الثقافة حيث كانـــت تـــتولى إصـــدارها ، وأن هـــذه المنظمة لها صلة وثيقة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

وقبل ذلك كانت مجلة (الكاتب) المصرية قد (فضحت) هذه العلاقة فى عددها الصادر فى ديسمبر ١٩٦٥ حيث ذكرت أن هذه المنظمة لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات التى تعمل لحساب وكالة المخابرات المركزية ، وأكدت الكاتب أن هذه المنظمة مجرد قناع من الأقنعة المتعددة التى تفسر تحتها الوكالة والتى من بينها الأقنعة الثقافية .

وكان الدكتور لويس عوض قد حاول طوال سنتى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ أن يدافع عن (حوار) حين كانت الحملة مستعرة من حولها ، إلا أنه بعد جملة التحقيقات التى نشرتها النيويورك تايمز حيث أثارت ضجة عالمية وطيرتها وكالات الأنباء ونشرت جريدة الأهرام تلخيصا مطولا لها فى أكثر من عدد ، اضطر إلى أن يهاجمها هو الآخر إلى الحد الذى جعله يطالب فى حديث مع مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر فى ١٥/ ٨ / ١٩٦٦ بمنعها من دخول مصر[٩٤]!!

وشهدت سوق بيروت سيلا من المجلات الموجهة إلى الأطفال وصغار الشباب العربى توجههم توجيها سيئا ، فإذا كان أطفالنا تستهويهم مغامرات " سوبرمان البطل الجبار " ، فليقرأوا إذن مجلة " سوبرمان " تصدر عن شركة المطبوعات المصورة ، وإذا كان صبياننا ولعون بمغامرات الرجل الوطواط باتمان فلتصدر لهم مجلة (الوطواط) عن نفس الشركة السابقة ، وإذا كان شبابنا مغرم بالعميل السرى " جيمس بوند " فليقرأ بنهم المجلة المتخصصة جدا " الجواسيس " عن دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة ، ولن نستطيع أن نحصر عدد المجلات اللبنانية ، من حيث المظهر الأمريكية ، من حيث الجوهر ، المجلات التى تسمى نفسها (المغامر) أو (الأبطال) أو غير ذلك من الأسماء التى تستهوى أعمار أبنائنا الغضة ، وتستهدف تنشئتهم على هذا المثال الذى ترسمه المخابرات الأمريكية [٩٥]. ولعل ما أتاح لهذه المجلات أن تظهر فى صورة سيل جارف ، هو أن السوق الوطنية تكاد تخلو من مجلات جادة للأطفال .

ومن أهم المجالات الإعلامية ، السينما ، ومن أخطر الكتب التى تكشف عن الدور الأمريكى كتاب كتبه المخرج كامل التلمسانى بعنوان (سفير أمريكا بالألوان الطبيعية) كان مما جاء فيه [٩٦] " أن نصف قرن من تطور صناعة الفيلم الأمريكى ، يمثل فى نفس الوقت الفترة الاستعمارية الأمريكية وقد تمشى تطور صناعة السينما الأمريكية مع المصالح الاحتكارية .. فالدعاية للحرب والفتح ، وسيادة الجنس الأبيض واضطهاد شعوب

المستعمرات .. هذه هى معالم أيديولوجيا السينما الأمريكية .. صحيح أن بعض التغييرات التى كانت تطرأ على موقف الرأسمالية الأمريكية خلال هذه الفترة نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية حتمت ظهور هذه التغييرات .. وبالتالى انعكست على مضمون الفيلم الأمريكى .. كما حدث فى عهد روزفلت .. ولكن هذه التغييرات كانت مؤقتة .. فما أن تمخضت الحرب العالمية الثانية عن خطة عدوانية جديدة تهدف إلى سيطرة أمريكا على العالم بالقوة المسلحة .. حتى أصبح الاحتكار الأمريكى فى حاجة إلى السيطرة على نوع الثقافة والأفكار التى يتضمنها الفيلم الأمريكى ".

ومن كلية التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة صدرت مجلة (التربية الحديثة) واستمرت من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٧٢ وطوال الفترة من ٢٨-١٩٦٦ كان يوجهها د.أمير بقطر ، ولعل بعض الأمثلة لسياسة هذا الرجل توضح لنا الدور الذى لعبته هذه المجلة التربوية ، فهو قد تلقى دراسته الابتدائية والثانوية فى كلية الأمريكان بأسيوط حيث كانت الدراسة كلها باللغة الإنجليزية ، ثم حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة كولومبيا بأمريكا وعين بعد عودته فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ثم ظل يترقى إلى أن أصبح عميدا لكلية التربية بها [٩٧] .

ونجد أمير بقطر يكتب فى هذه المجلة موضوعات مثيرة لم يكن الرأى العام مهيئا لمناقشتها بهذه الصورة التى أثارها لأنها كانت تتعلق بالشذوذ الجنسى والانحرافات النفسية والخلقية ، وكان أسلوبه يجنح إلى تملق غرائز القراء (مقال أبو الفتوح رضوان) .

كما نلاحظ أنه يصدر عددا فى إبريل سنة ١٩٣٧ يهاجم فيها الذين يرفضون اختلاط الجنسين فى معاهد التعليم " أما ما يحلو للبعض التشدق به ارتكانا على ما يسمونه التقاليد (الشرقية) فإنه شنشنة ألفناها ومجتها أسماعنا " (مقال فيليب صابر) ، وكان يقصد الاختلاط فى التعليم الثانوى ولو لاحظنا زمن صدور هذه الكلمات لأدركنا خطورة هذه الآراء.

وفى عام ٥٢/ ١٩٥٣ كان بقطر أستاذا زائرا بالولايات المتحدة فكتب فى إبريل سنة ١٩٥٣ مقالا يبرز فيه عظمة المعلم الأمريكى وقلما يخلو عدد من مقال عن تجربة رائدة فى أمريكا أو بحث أجرى فيها ، أو أخبار أو تعليقات !

٨- الترجمة :

كـــان الـــتقاء الشـــرق بالغرب فى القرن التاسع عشر ، سببا فى أن يدخل إلى البلاد العربـــية كثير من مظاهر الحضارة الأوربية وأدواتها ، وهى أشياء لم يكن للعرب المحدثين ســـابق اتصال بها ، ولا إطلاع عليها ولا استعمال لها ، ومن هنا اقتضت الضرورة أن يكون لهذه الأشياء الحديثة فى المعجم العربى الحديث وفى الاستعمال الشائع ألفاظ عربية أو معربة تحدد معانيها وتدل عليها .

وقـــد ســـبق للعرب مثل هذه التجربة فى حركة الترجمة والنقل فى العصر العباسى ، حيـــث بـــدأ الـــنقلة والمترجمون يضعون مئات ومئات الألفاظ لمسميات جديدة طرأت عليهم باختلاطهم مع الأعاجم سواء أكانوا من الفرس أم الروم أم الأحباش أم غيرهم . ولم يكن هذا دور النقلة والمترجمين وحده ولكنهم نقلوا العبارات الأجنبية إلى عبارات عربية ولهذا جمعت الترجمة بين ترجمة الألفاظ وترجمة الأساليب [٩٨] .

والـــذى حدث فى العصر العباسى حدث فى البلاد العربية فى القرن الماضى ، حدث فـــى مصـــر ، وحـــدث فـــى الشام ، وحدث فى كل وطن عربى استجدت فيه مظاهر جديدة للاخـــتلاط بالأوربيين والنقل عنهم . وقد بدأت حركة الترجمة فى بلاد الشام فى مطلع القرن التاســـع عشر ، ولكنها اقتصرت فى بادئ الأمر على الكتب الدينية واتخذت طابعا فرديا غير مـــنظم ، ثـــم بدأت هذه الحركة بداية تكاد لا تذكر فى عهد الحملة الفرنسية على مصر حيث ترجمـــت وصايا لقمان الحكيم Fable de Loqman Surnomme le Sage باللغة العربية ومعها ترجمتها الفرنسية فى مطبعة الحملة فى كتاب صغير من ١٢٠ صفحة ، وكذلك رسالة فـــى مرض الجدرى تأليف (ديجينيت) Desgenettes كبير أطباء الحملة ، وترجمة الأب رفائيل زاخور ، طبعت باللغتين الفرنسية والعربية فى ٤٣ صفحة [٩٩] .

واعـــتمد محمـــد على على الترجمة وسيلة أساسية فى تحديث مصر ، وكانت الدولة عـــندما تقرر فتح مدرسة تنقل مناهجها عن مدرسة مماثلة فى الخارج ، وتحضر مع المناهج مجموعـــة من الكتب المستخدمة هناك ، وتكلف المترجمين ترجمتها لتكون فى أيدى الطلاب كخطـــوة أولى فى سبيل إنشاء المدرسة ، وهكذا نشأت حركة ترجمة ، لم يكن هدفها ترجمة الكتاب أى كتاب ، وإنما كان هدفها ترجمة الكتب المدرسية بالذات ، فقد نشأت حركة ترجمة للكتـــب لا مـــن حيث هى معرفة كما حدث فى المجتمع العربى فى صدر الإسلام ولكن طلبا

لوسيلة تنشئ جيلا جديدا من شباب الأمة ولذلك انصبت حركة الترجمة حول الكتاب المدرسى (١٠٠) .

والمتأمل فى جملة الكتب التى ترجمت يجد أن أكثر ما ترجم كان فى الفنون الحربية والبحرية فقد ترجم فيها (١١ كتابا) ، وهذا أمر بديهى لا يحتاج إلى تعليل ، فالجهود الحربية استنفدت معظم وقت محمد على وحكومته ، ويلى هذه الفنون ، الطب البشرى فقد ترجم فيه ٣٤ كتابا وذلك للصلة الوثيقة بين مدرسة الطب والجيش ، أما الطب البيطرى ، فقد ترجم فيه ١٢ كتابا ، والعلوم الرياضية بفروعها المختلفة ترجم منها ٣١ كتابا .

أما الدراسات الأوربية ، فلم تبلغ من العناية قدر ما لقيت العلوم والفنون العملية ، رغم هذا ، فقد كان التاريخ أكثرها ، فترجم فيه ٢٤ كتابا ، وتليه الجغرافيا وما يتصل بها من علوم كالرحلات والجيولوجيا وترجمت فيها ٨ كتب ، أما الأدب فقد ترجم فيه كتاب والاجتماع كتاب والمنطق كتاب (١٠١) .

وكان محمد على يرى أن أول واجب على أعضاء البعثات ، ترجمة كتب العلوم التى درسوها فى أوربا ، فكان أول عمل يسند إليهم ، إمدادهم بالكتب والتنبيه عليهم بسرعة ترجمتها ، وكانت الحكومة تعلق على أعمال الترجمة أهمية كبرى لكى تظفر بأكبر عدد من الكتب المترجمة فى أقل زمن حتى أصبحت الترجمة تشغل الموظفين عن أعمالهم ، ثم ظهر أن بعض المترجمين لم يكن لهم من حذق اللغات الأجنبية والعربية ، والقدرة على التحرير والكتابة ما يمكنهم من ترجمة ما عهد به إليهم ترجمة صحيحة ، فدعا ذلك إلى التفكير فى حل يخفف عن أعضاء البعثات هذا العبء ، ويضمن وجود طبقة من العلماء والأفكار فى الآداب العربية وفى آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأجنبية ، وليكونوا صلة بين الثقافة العربية والغربية ، وينهضوا بالأداة الحكومية فيما يعهد به إليهم من المناصب (١٠٢).

وكان أن عرض رفاعة الطهطاوى على محمد على أن يؤسس مدرسة ألسن سميت عند إنشائها سنة ١٨٣٥ مدرسة المترجمين ثم غير أسمها فصار مدرسة الألسن ، وأصبح الغرض منها تخريج مترجمين (١٠٣) .

وقد بذل الطهطاوى نفسه جهودا كبيرة فى ترجمة عديد من الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية ، واعتبر المفكرون الذين ظهروا فيما بعد أن الترجمة جزء أساسى من رسالة المفكر

لأمـــته وتلامـــيذه ودعما لأفكاره التى ينادى بها ، وهى واجب على كل قادر عليها فى عصر اليقظة والنهوض ، فالحضارة تراث الإنسانية الباهر ، تضيف إليه كل يوم جديد وتطوره كل يوم إلى الغاية المرجاة من كمال الحياة ، غير أن بعض الأمم تسبق غيرها فى مضمار التقدم والارتقـــاء ، وعلـــى الأمـــم التى تخلفت أن تلحق بالسابق منها فى هذا المضمار ، والترجمة وسيلة أساسية لتحقيق هذا الغرض ، ورأى واحد مثل لطفى السيد أن الترجمة أنفع من التأليف فى بداية النهضة ، فالتأليف لابد وأن يستند إلى فكر ومعرفة ، وما من سبيل إليها فى مراحلها المـــتقدمة إلا عند الأمم السابقة إلى الحضارة والتمدين ، إلا أن يكون إحياء للماضى ، ومهما يكـــن فـــى الماضى من حياة وغناء ، فليس هناك غنى عن متابعة التطور والتقدم وإلا وقف العقل البشرى عند حدود القديم وحده مما ينتهى به إلى الجمود [١٠٤] !!

ومـــن أهـــم المترجمين فى أواخر القرن التاسع عشر ، فتـــى زغلول ، شقيق الزعيم المعـــروف سعد زغلول ، فمنذ سنة ١٨٨٢ ، عندما نكبت مصر بالاحتلال البريطانى ، كان يرى الأمة تتقلب فى أحوال متناقضة مهمة ، فكانت تسوءه هذه الأحوال ، ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج .. كان يود لـــو تدرك الأمة أن إبهام الغرض وعدم إدراكه بوضوح يجعله مستحيل المنال ، لذلك أراد أن يقدم للجمهور (العقد الاجتماعى) لروسو حتى يتبين الجمهور حق الأمة وما يجب أن يكون لهـــا من السلطان . وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغا كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصول الحقوق والواجبات ، وكذلك ترجم (سر تقدم الإنجليز السكســـون) لـــريمون ديمـــولان ، و(الفـــرد ضد المملكة) لسبنسر و (سر تطور الأمم) لجوستاف لوبون و(روح الاجتماع) لنفس المؤلف .. وهكذا .

وعمـــد أحمـــد لطفى السيد إلى عدد من كتب أرسطو فقام بترجمتها إلى العربية معللا ذلـــك بـــأن النهضـــة الأوربـــية لم تقم إلا بعد أن عمد رجالها على درس فلسفة أرسطو على نصوصـــها الأصـــلية فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة ، ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم أن أراءه ومذهبه أبســـط المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية [١٠٥] .

وبعد الحرب العالمية الثانية وبروز الولايات المتحدة قوة عظمى تريد أن تخلف الاستعمار القديم الممثل فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، بدأت تساعد وتغذى عملية ترجمة لعدد ضخم من الكتب الأمريكية ، وحظى ميدان التربية والتعليم بالعناية الأكبر لما هو معروف من خطورة العملية التربوية كعملية تشكيل وتكوين الإنسان ، وكانت مؤسسة فرانكلين هى الوسيط الأساسى حيث عمدت إلى إشراك عدد كبير من قيادات تعليمية حتى تيسر لها نشر هذه الترجمات فى مختلف المدارس .

وحظى جون ديرى فيلسوف التربية الأمريكية الأولى بنصيب الأسد فى الكتب التى ترجمت له ، إذ ترجمت كتبه : (الديمقراطية والتربية) و (الخبرة التربية) و(المدرسة والمجتمع) و (الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنسانى) و (البحث عن اليقين) و(المنطق نظرية البحث) و (الفن خبرة) و (الحرية والثقافة) و (تجديد فى الفلسفة) ، و(التربية فى العالم الحديث) . فضلا عن ترجمات لبعض تلاميذه مثل (كلباتريك) فى (المدينة المتغيرة والتربية) وكارلتون واشبورن (التربية التقدمية) ، والمؤسس الثانى للبراجماتية (الأول " بيرس ") وليم جيمس – ترجم له (أحاديث إلى المعلمين) و (إرادة الاعتقاد) و (البراجماتية) .

وكانت هناك أيضا سلسلة باسم دراسات سيكلوجية ، وعلم النفس للأباء والمدرسين صدرت منها عشرات الأجزاء ، وسلسلة (الثقافة العائلية) ، بإشراف وكيل لوزارة التربية فى مصر ، وسلسلة (بحوث تربوية فى خدمة المعلم) وهى ترجمة لبحوث أمريكية تصدرها إدارة معلمى الفصول بالجمعية القومية للتربية الأمريكية والجمعية الأمريكية للبحوث التربوية ، وسلسلة (التعليم فى ضوء التجارب) ، وسلسلة (العلاقات الإنسانية) [١٠٦].. وهكذا

وإذا كانت هذه السلاسل تستهدف تقديم المبادئ والأسس النفسية والفكرية والمهنية التى يربى المعلمون أبناءنا عليها ووفقا لها ، فإن هناك مجموعة أخرى من السلاسل التى تناسب كل منها قراء من سن صغيرة ، وهى تستهدف تقديم المعلومات التى يتعلمها التلاميذ فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهى عادة كتب فى العلوم مثل (الف باء ..) لتقريب المعرفة إلى النشء و (كتابك الأول عن ...) والعلوم المبسطة ، وهى للمرحلة

الإعداديـــة ، وسلسلة (كل شئ عن ..) و (معالم الطريق) و (حول العالم فى كتب) مما يناسب المرحلة الثانوية .

وهـــذه السلاسل وغيرها من الكتب والقصص التى أصدرتها المؤسسة تبدى اهتماما فائق الحد بأطفالنا وما يعلم لهم وما يجب أن يعرفوه وما لا يجب أن يعرفوه ، وتقدم لهم ذلك فـــى أعظم إخراج وأجوده .. بل وتقدم لهم ولشبابنا الكتب العلمية فى شتى الموضوعات التى تفتقر إليها المكتبة العربية وتشبع حاجتهم إلى المعرفة فعلا .. ولكن عن طريق أمريكى .

وبعـــد نكسة ١٩٦٧ بدأ مركز الترجمة ينتقل بقوة أكبر إلى بيروت من القاهرة وبدأت بعـــض كتـــب التربـــية الفرنســـية تترجم إلى العربية وكذلك الأمر بالنسبة للتربية فى الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكى ، لكنها ما زالت محدودة للغاية ، وعلى مفكر واحد من البرازيل وهو (باولو فرير) بترجمة كتابه (تعليم المقهورين)، وكتب أخرى ، ونستطيع أن نقول أن جهود الترجمة فى التربية والتعليم قد أصبحت أقل منذ السبعينات عنها قبل ذلك .

وربمـــا تمـــثل مجلـــة عرفت أولا باسم (مستقبل التربية) ، ثم (مستقبليات) التى يصـــدرها مكتب مطبوعات اليونسكو بالقاهرة المنفذ الأساسى الآن لترجمة (المقالات) وهى دورية فصلية ، والميزة الأساسية فيها أنها تقدم أنواعا مختلفة من الفكر التربوى خارج العالم العربى ، وإن كان يقلل من هذا أن الترجمة مع الأسف الشديد على مستوى سئ إلى حد كبير .

الهوامش

(١) جمـــال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ ، ص ت

(٢) جمـــال الدين الميال : الذكاء والوراثة ، مجلة العلوم ، القاهرة ، السنة السادسة ، العددان الخامس والسادس ، يونية ١٩٣٩ ، ص ٤٤١- ٤٤٥ .

(٣) الشيال : تاريخ الترجمة ، مرجع سابق . ص ٦ .

(٤) حـــامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإرادة التكامل القومى ، القاهرة دار الموقف العربى ، ١٩٨٣ ، ص ص ، ٢٣، ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) محمد الغزالى : ظلام من الغرب ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٤.

(٦) فـــؤاد زكريا : آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣ .

(٧) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، د.ت ، ص٧٥

(٩) لوتروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، نقله إلى عجاج نويهض ، والمقتبسات من تعليقات شكيب أرسلان على الكتاب ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧١ ، م١ ، ص ٢١٥ .

(٩) المرجع السابق . ص ٢١٦.

(١٠) حســين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى ، سلسلة أعلام العرب ، العدد (٢٥٣، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت ص ٢٨.

(١١) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(١٢) صبحى وحيدة ، ص ١٥٩ .

(١٣) المرجع السابق . ص ١٦٠.

(١٤) إبراهـــيم أبو لغد : الاستعمار ، أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، فى : وقائع الندرة التى عقدتها جمعية الخريجين بجامعة الكويت فى الفترة ما بين ٧-١٢ أبريل ١٩٧٤ ، الكويت بعنوان : أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، ص ١٢٦.

(١٥) المرجع السابق . نفس الصفحة .

(١٦) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ، بيروت ، الدار العلمية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣

(١٧) المرجع السابق .ص ٢٥.

(١٨) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(١٩) المرجع السابق . ص ٣٠.

(٢٠) حسن فوزى النجار ، رفاعة الطهطاوى ، ص ٢٩ .

(٢١) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد (٢١٥) ، فبراير ١٩٦٥ ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(٢٢) المرجع السابق . ص ٩٥.

(٢٣) أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة فى مصر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٦ .

(٢٤) المرجع السابق : ص ٣٧.

(٢٥) صلاح الدين البستانى : صحف بونابرت فى مصر (كورييه دى ليجيبت) ، القاهرة ، دار العرب للبستانى ، ١٩٧١ ، ص/ح.

(٢٦) المرجع السابق . المجلد الخاص بجريدة (لاديكاد أيجيسيين) ، م١ ، ص ١٢ .

(٢٧) ج . كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، د.ت ، ص ٢٤٣ .

(٢٨) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت ، ص ٦١٥ .

(٢٩) المرجع السابق . ص ٦١٢.

(٣٠) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ١٨ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٩ وما بعدها .

(٣٢) بونابرت فى مصر ، ص ٢٣٨.

(٣٣) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩١٤ ، بيروت – الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٨ ، ص ٣٢.

(٣٤) حامد ربيع ، مرجع سابق . ص ٢٩ .

(٣٥) محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ ، ص ١٠١.

(٣٦) عفاف صبرة : المستشرق ومشكلات الحضارة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ، ص٣٠

(٣٧) المرجع السابق . ص ٣٢.

(٣٨) السياسة اليومية ، القاهرة ، فى ١٩٢٦/٣/٢٧.

(٣٩) عفاف صبره : المستشرق ومشكلات الحضارة ، ص ٣٩ .

(٤٠) إبراهيم خليل أحمد : المستشرقون فى العالم الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣٨ .

(٤١) مصطفى خالدى وزميله : التبشير والاستعمار ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧ .

(٤٢) عفاف صبره ، ص ٤٠.

(٤٣) أزل شـــاتليه : الغـــارة علـــى العالم الإسلامى ، لخصها ونقلها إلى العربية مساعد إليافى وزميلة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥٠ هـــ ، ص ٣٢ .

(٤٤) على المحافظة ، مرجع سابق . ص ٢٥ .

(٤٥) المرجع السابق . ص ٢٦.

(٤٦) عـــبد المالك خلف التميمى : التبشير فى منطقة الخليج العربى ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٤٨) المرجع السابق . ص ٧٤.

(٤٩) عبد الجليل حسن : فرانكلين وتخريب الثقافة العربية ، مجلة الكاتب ، القاهرة ، العدد ٧٠ / يناير ١٩٦٧ ، ص ٧١ .

(٥٠) المرجع السابق . ص ٧٢.

(٥١) المرجع السابق . ص ٧٣.

(٥٢) فـــتحى خلـــيل : دفاع عن الثقافة العربية ، القاهرة ، دار الفجر الجديد للنشر والترجمة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٠.

(٥٣) المرجع السابق . ص ٥٢.

(٥٤) ســـعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٥ ، ص ٤٣٩ .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٤٤.

(٥٦) جـــرجس ســـلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ ،ص ١٢٦.

(٥٧) المرجع السابق . ص ١٢٧.

(٥٨) على المحافظة ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٥٩) المرجع السابق . ص ٢٦ .

(٦٠) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٥٨.

(٦١) التميمى : التبشير فى منطقة الخليج العربى ، ص ١٧٦.

(٦٢) المرجع السابق . ص ١٧٧.

(٦٣) غالى شكرى : أمريكا والحرب الفكرية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، د.ت ص ٢٨.

(٦٤) رفعت سيد أحمد : اختراق العقل المصرى ، القاهرة – بدون ناشر ، ١٩٨٥ ، ص ٤١.

(٦٥) محمد عبد الغنى حسن : أحمد فارس الشدياق ، سلسلة أعلام العرب ، العدد (٥) القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت ، ص ع .

(٦٦) المرجع السابق . ص ٤٩ .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٥٢-٥٣

(٦٨) المرجع السابق . ص ٥٥.

(٦٩) نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٤.

(٧٠) المرجع السابق . ص ١٦٥.

(٧١) المرجع السابق . ص ٢٧٢.

(٧٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

(٧٣) المرجع السابق . ص ٣٠٦

(٧٤) المرجع السابق ص ٣١٤ .

(٧٥) أحمـد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨ ، ص ٤٣٥ .

(٧٦) النجار : الطهطاوى ، مرجع سابق ص ٤٧ .

(٧٧) المرجع السابق ص ٤٨.

(٧٨) توفيق الحكيم : مصر بين عهدين ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٨٣ ، ص ٤٠.

(٧٩) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٨٠) المرجع السابق . ص ٤٣ .

(٨١) طه حسين : أديب ، القاهرة ، سلسلة كتب للجميع ، د.ت ، ص ١٣١ .

(٨٢) المرجع السابق . ص ١٣٢.

(٨٣) عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٤٠.

(٨٤) لويس عوض : مذكرات طالب بعثة ، القاهرة ، مؤسسة روزاليوسف ، سلسلة الكتاب الذهبى ، نوفمبر ١٩٦٥ ، ص ١١٣.

(٨٥) المرجع السابق . ص ١٧٧.

(٨٦) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ٣٥.

(٨٧) المرجع السابق ص ٣٦.

(٨٨) المرجع السابق . ص ٤٧، ٤٨.

(٨٩) المرجع السابق . ص ٥١.

(٩٠) عواطف عبد الرحمن : الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ – ٩٥٤ ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠.

(٩١) المرجع السابق . ص ٣٢.

(٩٢) المرجع السابق ص ٤٣.

(٩٣) عبد الجليل حسن : هامش آخر حول حقيقة مجلة حوار ، مجلة الكاتب ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٦٦ ، العدد ٦٦ ، ص ٧١– ٧٥

(٩٤) غالى شكرى : أمريكا والحرب الفكرية ، ص ٣٧، ٣٩.

(٩٥) فتحى خليل : دفاع عن الثقافة العربية ، ص ٥٦.

(٩٦) انظر العدد الخاص الذى أصدرته مجلة التربية الحديثة بمناسبة وفاته ، القاهرة الجامعة الأمريكية ، ديسمبر سنة ١٩٦٦ ، صفحات متفرقة .

(٩٧) محمد عبد الغنى حسن : أحمد فارس الشدياق ، ص ١٤٣.

(٩٨) الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر ، ص ٨١، ٨٢.

(٩٩) سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، ص ٣٠٣.

(١٠٠) المرجع السابق . ص ٣٠٤ .

(١٠١) أحمد أحمد بدرى : رفاعة الطهطاوى بك ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ، ١٩٥٠ ، ص ٣٨ .

(١٠٢) المرجع السابق . ص ٣٩.

(١٠٣) حسين فوزى النجار : أحمد لطفى السيد ، سلسلة أعلام العرب (٣٩) القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ، ص ٨٧.

(١٠٤) المرجع السابق . ص ٨٤.

(١٠٥) مجلة الكاتب ، العدد ٧٠ ، يناير ١٩٦٧ ، ص ٧٥.

(١٠٦) المرجع السابق . ص ٧٦.